لـمَاذا تَـأخَّر المسـلمُون
وَلـمَاذا تقَـدَّمَ غَيْـرُهُم

عنوان الكتاب : لماذا تأخَّر المسلمُون
ولماذا تقدَّمَ غَيْرُهُم

المؤلف : الأمير شكيب أرسلان

اختيار : مالك صقور

تقديم : أ.د. حسين جمعة

سلسلة الكتاب الشهري (كتاب الجيب)
رقم/100/ أيلول/تشرين الأول

الناشر : اتحاد الكتاب العرب

الإخراج الفني : وفاء الساطي

الحقوق كافة
محفوظة
لاتحاد الكتاب العرب

البريد الالكتروني: aru@net.sy

موقع اتحاد الكتاب العرب على شبكة الإنترنت
http://www.awu.sy

الأمير شكيب أرسلان

لِمَاذا تأخَّر المُسْلِمُون ولِمَاذا تقَدَّمَ غَيْرُهُم

اختيار : مالك صقور

تقديم : أ.د. حسين جمعة

سلسلة الكتاب الشهري (كتاب الجيب) رقم (100)

تـأخُّر العرب والمسلمين

(قـراءة في كتـاب شكيب أرسلان)

1869 ـ 1946م

أ. د. حسين جمعة

1 ـ سبب التأليف:

كتاب "لماذا تأخر المسلمون ولماذا تَقَدَّم غيرهم؟" جواب على رسالة بعث بها (الأستاذ المصلح السيد محمد بسيوني عمران ـ المتوفى 9 شوال 1339هـ الموافق 1921/6/21م) من جزيرة (سمبس ـ برنيو) في (جاوه) بأندونيسيا إلى المصلح الشيخ (محمد رشيد بن علي رضا) ـ المولود في 27 جمادى الأولى 1282هـ (1865/9/23) في قرية القلمون جنوب طرابلس بلبنان، وتوفي بالقاهرة (1354هـ/1935م).. وفق ما

قال الإمام محمد رشيد رضا: "كتب إليَّ تلميذي المرشد... كتاباً يقترح فيه على أخينا المجاهد أمير البيان أن يكتب للمنار مقالاً بقلمه السيال في أسباب ضعف المسلمين في هذا العصر، وأسباب قوة الإفرنج واليابان وعزتهم) (ص 23 ـ لماذا تأخر المسلمون).

وحمل الإمام رشيد رضا رسالة تلميذه إلى الأمير شكيب، راجياً إياه ـ وكانت بينهما صداقة متينة ـ أن يكتب ما يراه في مجلة (المنار) التي يقوم عليه... تلبّت الأمير وهو من عرف بالكتابة إلى صحف الشرق والغرب والأصدقاء حتى رجع من رحلته الأخيرة إلى إسبانيا، وهي الرحلة التي زوّدته بخير وفير من مشاهد حضارية لأمته العربية في الأندلس والمغرب الأقصى؛ ولَمَس المحاولات الفرنسية السيطرة على المغرب العربي ومحو ثقافته الأصلية كما فعلت إسبانيا في الأندلس، وأرسل هذا الكتاب الفريد من (لوزان) في سويسرا عام (1930م) وكان قد انتقل إليها منذ عام (1925م) ومكث فيها ثم في (جنيف) حتى نهاية الحرب العالمية الثانية عاد بعدها إلى سورية في (1945م)، علماً أنه انتقل من دمشق إلى تركيا (1917 ـ 1925م) وفي المرحلتين

كان يزور عدداً من البلدان كأمريكا الشمالية وفرنسا وروسيا وإيطاليا ومصر.. من دون أن ننسى أنه عاش في (مرسين ــ التركية في 1923 ــ 1925م) بعد أن انتخب سكرتيراً لمؤتمر الشعوب المقهورة في (جنوى)...

ونرى أن كتابه (لماذا تأخر المسلمون...؟) الذي نشرت مجلة (المنار) منه مقالات عدة ومن ثم نشر في مطبعة عيسى البابي الحلبي بالقاهرة عام 1939م يدل على ثقافة واسعة ومنهج تحليلي مثير في عرض أسباب تخلف العرب والمسلمين وتقدم غيرهم؛ وتقديم الحلول لها....

2 ـ تعريف بالأمير شكيب أرسلان:

ولد الأمير (شكيب بن حمود بن حسن بن يونس بن منصور بن عباس بن فخر الدين بن حيدر بن سليمان أرسلان) في قرية (الشويفات) بجبل لبنان ليلة الاثنين (غرّة رمضان 1286هـ ــ 1869/12/25م). وتعود أصوله إلى (قحطان بن عون بن ملك الحيرة: المنذر بن الملك النعمان (أبي قابوس) صاحب اعتذاريات النابغة الذبياني.

وتعني (شكيب) بالفارسية (الصابر) بينما تعني (أرسلان) بالتركية (الأسد) ولُقّب بالأمير لنسبه؛ وبأمير البيان لبراعته في الكتابة والأدب... وتلقى تعليمه بمدرسة (الحكمة) في بيروت التي انتقل إليها عام (1879م) وأول أساتذته فيها الشيخ عبد الله البستاني. وشغف بالعلم والثقافة واتجه إلى العمل السياسي والإداري ثم الثقافي العام، وأصدر في (سويسرا) مجلة شهرية ناطقة باللغة الفرنسية بعنوان (الأمة العربية). وهي تعنى بالنهضة العربية، والدعوة إلى الحفاظ على الخلافة العثمانية في إطار وحدة العرب والوحدة الإسلامية، وفق البيان الذي أصدره في الآستانة (استانبول) عام (1914م) بعنوان "بيان إلى الأمة العربية عن حزب اللامركزية". كان شديد الحرص على الوحدة الثقافية لأمته ما جعله واحداً من المعنيين بشؤونها الخاصة والعامة سياسياً وثقافياً واجتماعياً كما نراه في كتابه (الوحدة العربية) الصادر في دمشق سنة (1937م). فكان العلم البارز بين أعلامها، والكاتب الذي لا يشق له غبار في الصحافة شرقاً وغرباً، والمؤرخ الذي وضع الأحداث في نصابها الزماني والمكاني والموضوعي بوصفه مثقفاً

مطلعاً ومحللاً مميزاً كما ظهر في كتابه (الحلل السندسية في الآثار والأخبار الأندلسية) الصادر في القاهرة 1939م) والذي ألَّفه إثر زيارته لإسبانيا وما شاهده من آثار عربية. وكان المفكر الذي حافظ على الخصائص التي يتوخاها لنهضة أمته ووحدتها، وفق ما يعرض له في كتابه (النهضة العربية في العصر الحديث ــ دمشق ــ 1937م)، في الوقت الذي كان أديباً وشاعراً منذ مطلع شابه في عام(1887م)، ولذا فله (ديوان شعر) صدر في القاهرة (1935م). وقد عقد صداقات عِدَّة مع عدد من مثقفي الأمة وأدبائها من أمثال الإمام (محمد عبده) الذي عرفه منذ انتقاله إلى مصر عام (1890م) ولازمه وتعرف من خلاله إلى أبرز رجالات عصر النهضة مثل (علي يوسف، وأحمد زكي وإسماعيل صبري وعبد الله فكري) كما تأثر بالشيخ إبراهيم اليازجي في الوقت الذي تأثر بالسيد جمال الدين الأفغاني تأثراً واضحاً جعله يقتدي به في منهجه الفكري وحياته السياسية؛ وكذلك تأثر بأحمد فارس الشدياق؛ ومن كليهما استمد فكرة الخلافة الإسلامية، ووعيه للدولة العثمانية... ومن ثم قامت صداقات بينه وبين عدد من كبار الأدباء والمفكرين،

وقد سجلها في كتب خاصة مثل (شوقي، أو صداقة أربعين سنة) وصدر في مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ــ القاهرة (1936م) وكان تعرف إلى شوقي في باريس يوم ذهب إليها، ومثل كتاب (السيد رشيد رضا، أو إخاء أربعين سنة) وصدر في مطبعة ابن زيدون ـ دمشق سنة (1937م).

وأعتقد جازماً أن الأمير (شكيب أرسلان) كان فوق الانتماء المذهبي وإن ولد لمذهب (الموحدين)؛ فهو المثقف الذي انفتح على المذاهب والثقافات، وتزوج بسيدة شركسية من الأردن عام (1916م) واسمها (سليمى بنت الخاص بك حاتوغو)... وتأمَّل مختلف العادات والأفكار عند أمم أخرى وأخذ منها ما يراه مناسباً لأمته وقيمها وثقافتها. وكان يمارس عباداته؛ وحجَّ بيت الله عام (1929م)، وظل متمسكاً بالقيم الدينية حتى وافاه الأجل في(15 محرم 1366هـ/9ـ 12ـ 1946م).

ولعل كتابه "لماذا تأخر المسلمون؟ ولماذا تقدّم غيرهم"؟ يعبر عن ذلك كله.

3ـ تعريف بالكتاب:

يتألف الكتاب وفق طبعة وزارة الثقافة السورية بالتعاون مع دار البعث من (144) صفحة موزعة على مقدمتين وبيان سبب تأليف الكتاب باختصار ثم بيان جواب الأمير (الكتاب) الذي يتناول ضعف الأمم عامة وسبل ارتقائها وضعف أمته الإسلامية خاصة في إطار من المقارنة اللطيفة بين أبنائها وأبناء غيرها... وعالج ذلك ابتداء بالصفحة (74). ومن ثم توقف بعدها عند أهم أسباب تأخر المسلمين، فتحدث عن (الجهل والعلم الناقص وفساد الأخلاق، والهلع واليأس والقنوط ونسيان الماضي... وتأثير أهل الجمود والجحود والجبر والكسل) في الطبائع والأجناس... وغير ذلك مما ضمته الصفحات (74 ـ 118) ثم ألَمَّ بعدد من الأفكار التي تناولت (مدنية الإسلام) حتى آخر الكتاب (118 ـ 149) حينما أخذ المسلمون بالحضارة؛ والعلم والخلق وسبل التقدم وهو ما حث القرآن عليه... فالعرب لا ينهضون إلا بما نهض بهم غيرهم و.... وهذا يعني أن هناك وعياً كبيراً لدى الأمير للمؤامرات التي يحوكها الغزاة والمستعمرون لبقاء الأمة مجزأة متخلفة، وفريسة سهلة

لفرنسا وإنكلترا. وإذا كان شكيب أرسلان لم يشترك في الثورة العربية ضد الدولة العثمانية عام (1916م) فإنه أسهم في إيقاظ الشعور الوطني تجاه فلسطين حين نبه على سياسة المستعمرين بشأنها...

وقبل أن نقوم بقراءة الكتاب نذكر بأنه انتهى بخلاصة وتعريف شديد الإيجاز بالأمير شكيب وأعماله ومن بعد جاء فهرس المحتوى...

4 ـ قراءة في الكتاب:

ما كنا لنعيد طباعة الكتاب لولا أهميته العُظْمى في مثل هذه الظروف التي تمر بها أمتنا العربية عامة وقطرنا الحبيب سورية خاصة؛ فما أشبه الليلة بالبارحة، فنحن نرى أن المستعمر الغربي غيّر أسلوبه وما غيّر جِلْده وطبعه، كون الأفكار التي عرض لها الأمير في أسباب تأخر الأمة لم تختلف ـ البتة ـ عما نراه في واقعنا، وهي التي أدت إلى مزيد من الخلاف والصراع والاقتتال فيما بين أبناء الوطن الواحد. فكل ما يحيط بالعرب والمسلمين ـ اليوم ـ يدل على تخلف وجهل و... وهو عينه ما لفت الانتباه له الأمير في قوله:

"إن حالتهم الحاضرة لا ترضي لا بد من جهة الدين ولا من جهة الدنيا؛ ولا من جهة المادة ولا من المعنى" ـ ص 31.

فأمير البيان كان أميراً للسياسة الوطنية؛ إذ فطن لأطماع الغرب الاستعماري؛ ومحاولته إضعاف الأمة العربية والإسلامية بمثل ما فطن للأمراض التي تعاني منها أمته... ولذلك أوقف كتابه على الأمرين معاً، ونبه على الخلاص من الوضع المأساوي الذي تعاني منه الأمة، ما يجعلها لقمة سائغة بأفواه الآخرين...

ولذلك لا نعجب أن يسعى المحتل الفرنسي جاهداً إلى تشويه صورة الأَمير الوطنية والخلقية فيكيل له التهم بالعمالة للأتراك؛ بل إن المفوّض السامي الفرنسي (جوفنيل) اتهمه بأنه كان من أعوان (جمال باشا السفَّاح)، وكان قائداً لفرقة المتطوعين تحت إمرة (جمال باشا)... ومن يدقق في ذلك يدرك براءته من التهمة لأن (أرسلان) هو من قاد الرجال الوطنيين لمقاومة المحتل الفرنسي، في الوقت الذي يرى حلفاء فرنسا أفاعي قاتلة شأنهم شأن الاستعمار الفرنسي...

وحين كان يدعو إلى الخلافة العثمانية الجامعة للعرب والمسلمين وقف مدافعاً عنها وواجه الاحتلال الغربي وبخاصة الفرنسي؛ وقاومه مقاومة شديدة، ولكنه في الوقت نفسه كره استبداد رجالات الدولة العثمانية مثل (جمال باشا) وحارب ظلمهم فطاردوه فلجأ إلى الآستانة... ثم ما لبث أن اكتشف تنكر الأتراك في الآستانة لمبادئ الخلافة العثمانية التي تجمع أبناء الأمة قاطبة؛ ورأى أنهم يقطعون كل صلة لهم بالعرب والمسلمين ليتجهوا إلى سلطنة تركية علمانية تتحكم بالعرب والمسلمين ما جعله يراجع كثيراً من مواقفه وآرائه؛ ليضع نفسه في خدمة قضايا أمته العربية ونهوضها ثقافياً واجتماعياً وسياسياً... ولذا عالج قضايا التحرر الوطني من خلال هذا الاتجاه، وتوقف عند أسباب عدة لتأخر الأمة منها:

1 ـ **الجهل:** يعد الجَهْل مفتاح كل داء، وباب كل شر، يهدّد الإنسان والمجتمع والوطن، ولا أخطر منه إلا العلم الناقص؛ لأن من يدّعي العلم لا يعتقد أنه جاهل.... ومن ثم فإن الجهل أساس الجمود والانحطاط؛ وأساس الجحود والتجاحد والتظالم.

2 ـ فقدان المنظومة الخلقية الأصلية :

تقوم الأمم على منظومة خلقية ترى فيها الصلاح لتقدمها ونهوضها، فأي فساد يعتريها إنما هو ضياع الأمة... وأسُّ هذه المنظومة لدى (الأمير) (الصدق والعدل والمساواة والأمانة والتضحية والإخلاص). وإذا ما أصابها خلل أو فساد تخلفت الأمة وتدهورت ثم فنيت... لذا قال: "ومن أكبر عوامل [التقهقر] فساد أخلاق [الأمراء] بنوع خاص، وظن هؤلاء ــ إلا من رحم ربك ــ أن الأمة خلقت لهم؛ وأن لهم أن يفعلوا بها ما يشاؤون، وقد رسخ فيهم هذا الفكر حتى إذا حاول محاول أن يقيمهم على الجادة بطشوا به عبرة لغيره" (ص 75).

3 ـ سقوط الأمة وانهيارها :

هناك حالة تقهقر تعيش فيها الأمة نتيجة أسباب شتى، كلها تنتمي إلى الحالة السلبية في الأمة، وهي تؤدي إلى انهيارها وتراجعها لأنها فقدت القدرة على التوازن فشاع فيها حالات الإحباط واليأس؛ وانتشر بين ظهرانيها التخلف والجهل والفقر... وهو ما يستفيد منه أعداء الأمة ويسخرونه لأهدافهم.

فالأمير يعالج أحوال الأمة باتجاهين؛ موضوعي وذاتي؛ خلقي ونفسي؛ سياسي وثقافي؛ وطني وقومي وإنساني، ويبرز أثر العامل الديني في الصراع بين الشرق والغرب في عدد من مقالاته وكتبه ولذا يحرص على ربط التقدم والنهوض بالدين الحَقّ بما ينطوي عليه من قيم رفيعة تحث الإنسان على الاستقامة والصدق والتعاون و... ولذا كان يحرص على التآخي بين أبناء المشرق أياً كانت مذاهبهم وطوائفهم، ويرى أن الانتماء الوطني المستند إلى وحدة الثقافة أساس الالتقاء. ومن هنا يمكن أن نتوقف عند عوامل ارتقاء الأمة العربية والإسلامية لديه. وهو ارتقاء يحتاج إلى أمور كثيرة، منها:

1 ـ الوحدة الجامعة: إن أعظم ما تحتاج إليه الأمة إعادة اللحمة بين أبنائها على أسس متينة، مستفيدة من العامل التاريخي الموضوعي الذي نمّى لديها حالة التكاتف والتعاون في الحفاظ على وحدة الجماعة؛ وهي التي تنمو وتتجدد في إطار التنوع والتعدد (ص 90 ـ 99) فالتفرق ضعف وتمزق... ومن ثم فالوحدة أدعى إلى الاجتماع في الحروب والأزمات من غيرها. بل إننا نرى أن في هذه الأفكار دعوة مبكرة إلى

الوحدة العربية ـ لا غير ـ في الوقت الذي كان ينبه على خطر بعض المثقفين الذين تأثروا بالأفكار الغريبة المريضة إذ قال: "إن لكل عصر شعوبية، وشعوبية هذا العصر هو أولئك الأدباء والكتاب الذين يهاجمون العرب والعروبة"... وحين لفت الانتباه إلى هذا فإنه رأى أن التعصب الديني هو الخطر الماحق لوحدة المجتمع.

2 ـ التراحم والتآخي والانتقال من حالة الظلم والتظالم؛ والقهر والاستبداد الذي يطل من بعض رجالات الدولة الذين اتصفوا بالغلظة والقسوة... لذلك دعا إلى سياسة اللين والحزم؛ ونشر التسامح في إطار المحبة والمودة والابتعاد عن الظلم والتظالم، والتكبر والصلف، والتعصب والانغلاق؛ فالأخلاق الفاضلة أصل القيم الإنسانية.

3 ـ التمسك بالتضحية والدفاع عن القيم والوطن، والابتعاد عن الأنانية والاستعلاء... فالتضحية في سبيل الوطن والمبدأ أساس التفوق والنهوض، والأمة المتخلفة تلك التي تضع التضحية في آخر قيمها... ولذا ثم شنَّ حملة شعواء على الخيانة والخونة فخيانة الوطن موت محتم (57 ـ 73) كما شن حملة ضروساً على الجبن والخوف، والفرار والهلع (77).

4 ــ التمسك بحبل العلم والتحرر من الجهل والتزمت والتعصب والانغلاق... وهو العلم الحديث المتجدد الذي يواكب التطور والتقدم، فالعلم المستقر كالجهل المستقر... ولهذا شن حملة شعواء على الجهل والجمود والجحود (79 ـ 88).

5 ــ العمل أصل التقدم: إن العمل الصادق المخلص المنظم (107 ـ 112)، واتباع سنن الكون في الوصول إلى الغاية المنشودة أساس النهوض والتقدم... فالعمل يحقق ما لا يحققه الكسل والخمول، والعجز، والقصور... والابتعاد عن حالات الإحباط والقلق واليأس والإحباط، ولا بد من التخلص من الجمود القاتل الذي يؤدي إلى الفقر والتقهقر، والإسلام بريء من كل جمود إذ قال: "والجاحد هو سبب الفقر الذي ابتلي به المسلمون لأنه جعل الإسلام دين آخرة فقط. والحال أن الإسلام هو دين دنيا وآخرة" (ص 104).

6 ـ الانفتاح على الآخر ومعرفة سنن الحياة والعلوم لديه وتعلّم لغته... ولكنه الانفتاح الذي يستزيد من الأمم ولا ينصهر فيها أو يصبح تابعاً لها... فالتعصب والانغلاق أصلان في ضعف الأمم.

7 ــ ترشيد أنماط الإنفاق ووضعه في الموضع اللازم لنهوض الأمة وتطوير مؤسساتها. فضياع المال لا يقل قيمة عن ضياع الرجال... ومن ثم لا بد من عملية التخطيط للمال للسنوات العجاف وزمن الحروب، وعَدْم الاتجار بأرزاق الناس وأقواتهم (ص 65 ـ 67) وقد قال المتنبي:

فلا مجد في الدنيا لمن قل ماله

ولا مال في الدنيا لمن قَلَّ مجده

8 ــ العلماء أساس صلاح الأمة وهم القيمون على الأمراء، فإذا اختل الميزان هلكت الأمة.... وهذا ما يعرف اليوم بالعلاقة بين الثقافي والسياسي وعدم طغيان أحدهما على الآخر؛ إذ لا بد من إقامة التوازن والعدالة فيما بينهما، وألا يكون النقد الموضوعي من الثقافي للسياسي مدعاة للتظالم والحقد أو الكيد...

تلك هي صورة موجزة تعبر عن رؤية متأملة في كتاب أمير البيان (لماذا تأخر المسلمون...)؛ وهي رؤية مؤيدة بسيرته التي اتصفت بعقلانية وحكمة؛ وميلٍ شديد إلى الإصلاح، ورأب الصدع بين أبناء قومه حاثاً إياهم على الوحدة؛

والتكاتف سواء كان ذلك على صعيد طائفته أم على صعيد وطنه وأمته، وكان يرى أن صلاح كل شأنٍ بصلاح السياسة في الدولة والمؤسسات وعلى الصعيدين الشعبي والرسمي.

فلا غرو بعد ذلك كله أن تطبق شهرة (شكيب أرسلان) الآفاق، ويكون موضع ثقة العرب والمسلمين؛ ويحظى بتقديرهم فيسعون إلى لقائه أو مكاتبته، أو انتخابه رئيساً لهيئات عدة، فكان ــ مثلاً ــ في (تموز 1926م) في لجنة رئاسة (مؤتمر الخلافة) ودعاه المهاجرون العرب في أمريكا الشمالية إلى مؤتمر عُقد في (ديترويت) عام (1927م)، وفي عام (1934م) سعى بالصلح بين عاهل السعودية (عبد العزيز بن سعود) والإمام (يحيى) باليمن، ونجح في ذلك... ثم كان في أغلب الوفود التي ذهبت إلى مواطن القرار في العالم بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية مثل (باريس ولندن وجنيف)، وقابل الزعيم الإيطالي (موسوليني) وباحثه في قضية إعادة المهجّرين من ليبيا، فأعاد (80) ألف عربي إلى وطنه ليبيا...

المصادر

- اعتمدت في جمع المادة والنظر فيها على المجلدات الأربعة الصادرة عن دار الفكر ــ بيروت ــ الطبعة الرابعة 1294هـ/1973م.

❖ حاضر العالم الإسلامي ــ تأليف (لوثروب شودارد الأمريكي) ـ نقله إلى العربية الأستاذ (عجاج نويهض).

- وهو كتاب خاص بأمير البيان الأمير (شكيب أرسلان ـ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ـ الطبعة الرابعة ـ 1294هـ/1973م.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿**إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾ سورة الرعد 13: 11 ﴿**ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة نعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**﴾ سورة الأنفال 8: 53

﴿**إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد**﴾ سورة غافر 40: 51 ﴿**إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون**﴾ سورة الحجرات 49: 15

كتب إلي تلميذي المرشد الشيخ محمد بسيوني عمران أمام مهراجاً جزيرة سمبس برنيو (جاوه) كتاباً يقترح فيه على أخينا المجاهد أمير البيان أن يكتب للمنار مقالاً بقلمه السيال في أسباب ضعف المسلمين في هذا العصر وأسباب

قوة الإفرنج واليابان وعزتهم بالملك والسيادة والقوة والثروة. وقال في كتاب آخر إنه قرأ ما كتبناه في المنار وتفسيره من بيان الأسباب في الأمرين وما كتبه الأستاذ الإمام في مقالات (الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية) في الموضوع، وإنما غرضه أن يكتب في ذلك أمير البيان بقلمه المؤثر المعبر عن معارفه الواسعة، وآرائه الناضجة، لتجديد التأثير في أنفس المسلمين بما يناسب حالهم الآن، لتنبيه غافلهم، وتعليم جاهلهم، وكبت خاملهم، وتنشيط عاملهم. وبنى الاقتراح على الأسئلة الآتية التي صارت مثار شبهة على الدين عند غير علمائه، فهو يعلم ما سمعه من دروسنا في مدرسة الدعوة والإرشاد ومما كتبناه مراراً في المنار والتفسير أن كتاب الله تعالى حجة على أدعياء الإسلام والإيمان، وليسوا هم حجة عليه.

افترضت هذا الاقتراح لحمل أخي ووليي الأمير شكيب على كتابه شيء مثل هذا للمنار، وأنا الذي أنصح له دائماً بتخفيف أحمال الكتابة عن عاتقه لكثرة ما يكتب لصحف الشرق والغرب وللأصدقاء وغيرهم، فأرسلت إليه كتاب الشيخ محمد بسيوني عقب وصوله إليه، فأرجأ

الجواب عنه لكثرة الشواغل إلى إن عاد من رحلته الأخيرة إلى إسبانية وقد أثرت في نفسه مشاهد حضارة قومنا العرب في الأندلس والمغرب الأقصى، وشاهد تأثير محاولة فرنسة تنصير شعب البربر في المغرب تمهيداً لتنصير عرب أفريقية المرزوئين باستبعادها لهم، كما فعلت إسبانية بسلفهم في الأندلس ـ فكتب الجواب منفعلاً بهذه المؤثرات، فكان آية من آيات بلاغته، وحجة من حجج حكمته، لعلها أنفع ما تفجر من ينبوع غيرته، وانبجس من معين خبرته، فسال من أنبوب براعته، جزاه الله خير ما جزى المجاهدين الصادقين.

محمد رشيد رضا

كتاب الشيخ

محمد بسيوني عمران

حضرة مولاي الأستاذ المصلح الكبير السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار نفعني الله والمسلمين بوجوده العزيز آمين.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. أما بعد فإن من قرأ ما كتبه في المنار وفي الجرائد العربية العلامة السياسي الكبير أمير البيان، الأمير شكيب أرسلان، من مقالاته الرنانة المختلفة المواضيع، عرف أنه من أكبر كتاب المسلمين المدافعين عن الإسلام، وأنه أقوى ضلع للمنار وصاحبه في خدمة الإسلام والمسلمين، وأني أرجو من الله

تعالى أن يطيل بقاءهما الشريف في خير وعافية ـ كما أرجو من مولاي الأستاذ صاحب المنار أن يطلب من هذا الأمير الكاتب الكبير أن يتفضل علي بالجواب عن أسئلتي الآتية وهي:

1ـ ما أسباب ما صار إليه المسلمون (ولاسيما نحن مسلمو جاوة وملايو) من الضعف والانحطاط في الأمور الدنيوية والدينية معاً، وصرنا أذلاء لا حول لنا ولا قوة، وقد قال الله تعالى في كتاب العزيز ﴿**ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين**﴾ فأين عزّةُ المؤمنين الآن؟ وهل يصح لمؤمن أن يدعي أنه عزيز وإن كان ذليلاً مهاناً ليس عنده شيء من أسباب العزة إلا لأن الله تعالى قال ﴿**ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين**﴾.

2ـ ما الأسباب التي ارتقى بها الأوربيون والأمريكانيون واليابانيون ارتقاء هائلاً؟ وهل يمكن أن يصير المسلمون أمثالهم في هذا الارتقاء إذا اتبعوهم في أسبابه مع المحافظة على دينهم (الإسلام) أم لا؟

هذا والمرجو من فضل الأمير أن يبسط الجواب في المنار عن هذه الأسئلة وله وللأستاذ صاحب المنار من الله الأجر الجزيل.

محمد بسيوني عمران.

سنبس يورنيو الغربية في 21 ربيع الآخر سنة 1348

هذا النص كتاب السائل ويتلوه جواب الأمير، وقد وضعنا له بعض العناوين، لأنها كمحطات الطريق للسالكين، وعلقنا عليه قليلاً من الحواشي المفيدة للقارئين، كما فعلنا ذلك في كتاب الإسلام والنصرانية لشيخنا الأستاذ الإمام (رح)

جواب الأمير شكيب أرسلان

إن الانحطاط والضعف اللذين عليهما المسلمون شيء عام لهم في المشارق والمغارب لم ينحصر في جاوة وملايو، ولا في مكان آخر، وإنما هو متفاوت في دركاته، فمنه ما هو شديد العمق، ومنه ما هو قريب الغور، ومنه ما هو عظيم الخطر، ومنه ما هو أقل خطراً.

وبالإجمال حالة المسلمين الحاضرة ولاسيما في القرن الرابع عشر للهجرة أو العشرين للمسيح، لا نرضي أشد الناس تحمساً بالإسلام وفرحاً بحزبه، فضلاً عن غير الأحمسي من أهله.

إن حالتهم الحاضرة لا ترضي لا من جهة الدين ولا من جهة الدنيا، ولا من جهة المادة ولا من المعنى. وإنك لتجد

المسلمين في البلاد التي يساكنهم فيها غيرهم متأخرين عن هؤلاء الأغيار لا يسامتونهم في شيء إلا ما ندر، ولم أعلم من المسلمين ممن ساكنهم أمم أخرى في هذا العصر ولم يكونوا متأخرين عنهم إلا بعض أقوام منهم، وذلك كمسلمي بوسنة مثلاً فإنهم ليسوا في سوي مادي ولا معنوي أدنى من سوي النصارى الكاثوليكيين، أو النصارى الأرثوذكسيين الذين يحيطون بهم، بل هم أعلى مستوى من الفريقين، وككثير من مسلمي الروسية الذين لم يكن المسيحيون الذين يجاورونهم أرقى منهم. ولقد كان المسلمون في أذربيجان قبل الحرب أرقى من الطوائف المسيحية التي تساكنهم، ولا خلاف في أن مسلمي الصين إجمالاً على تأخرهم هم أرقى من الصينيين البوذيين، هذا إذا كانت النسبة بين الفريقين باقية كما كانت قبل الحرب العامة، وفيما عدا هذه الأماكن تجد تأخر المسلمين عن مسامتة جيرانهم عاماً مع تفاوت في درجات التأخر.

ويقال إن العرب في جزيرة سنغافورة هم أعظم ثروة من جميع الأجناس التي تساكنهم حتى من الإنكليز أنفسهم بالنسبة إلى العدد، لولا أعلم مبلغ هذا الخبر من الصحة،

ولكنه على فرض صحته ليس بشيء يقدم أو يؤخر في ميزانية المسلمين العامة.

ولا إنكار أن في العالم الإسلامي حركة شديدة ومخاضاً عظيماً شاملاً للأمور المادية والمعنوية، ويقظة جديرة بالإعجاب، قد انتبه لها الأوروبيون وقدروها قدرها، ومنهم من هو متوجس خيفة مغبتها، لا يخفى هذا الخوف من تضاعيف كتاباتهم، إلا أن هذه الحركة إلى الأمام لم تصل بالمسلمين حتى اليوم إلى درجة يساوون بها أمة من الأمم الأوروبية أو الأميريكية أو اليابان.

فبعد أن تقرر هذا وجب أن نبحث في الأسباب التي أوجدت هذا التقهقر في العالم الإسلامي بعد أن كان منذ ألف سنة هو الصدر المقدم، وهو السيد المرهوب المطاع بين الأمم شرقاً وغرباً، فقبل أن نبحث في أسباب الانحطاط يجب أن نبحث في أسباب الارتقاء فنقول:

أسباب ارتقاء المسلمين الماضي

إن أسباب الارتقاء كانت عائدة في مجملها إلى الديانة الإسلامية التي كانت ظهرت جديداً في الجزيرة العربية فدان بها قبائل العرب، وتحولوا بهدايتها من الفرقة إلى الوحدة، ومن الجاهلية إلى المدنية، ومن القسوة إلى الرحمة، ومن عبادة الأصنام إلى عبادة الواحد الأحد، وتبدلوا بأرواحهم الأولى أرواحاً جديدة، صيرتهم إلى ما صاروا إليه من عز ومنعة، ومجد وعرفان وثروة، وفتحوا نصف كرة الأرض في نصف قرن، ولولا الخلاف الذي عاد فدب بينهم منذ أواخر خلافة عثمان وفي خلافة علي (رض) لكانوا أكملوا فتح العالم ولم يقف في وجههم واقف.

على أن تلك الفتوحات التي فتحوها في نصف قرن أو ثلث قرن برغم الحروب التي تسببت بها مشاقة معاوية لعلي

والحروب التي وقعت بين بني أمية وابن الزبير قد أدهشت عقول العقلاء والمؤرخين والمفكرين، وحيرت الفاتحين الكبار، وأذهلت نابليون بونابرت أعظمهم، وله تصريح في ذلك.

فالقرآن أنشأ إذاً العرب نشأة مستأنفة وأخرجهم من جزيرتهم والسيف في إحدى اليدين والكتاب في الأخرى يفتحون ويسودون ويتمكنون في الأرض.

ولا عبرة بما يقال في شأن العرب قبل الإسلام، وما يروى من فتوحات لهم، وما ينوه به من أخلاق عظام في الجاهلية، فهذه قد كانت ولا تزال آثارها ظاهرة، ولا شك في مدنية العرب القديمة وأنها من أقدم مدنيات العالم، ومما يرجح أن الكتابة قد بدأت عندهم، ولكن دائرة تلك المدنية كانت محدودة مقصورة على الجزيرة وما جاورها. وقد أتى على العرب حين من الدهر سادهم الغرباء في أرضهم، وأذلهم الأجانب في عقر دارهم، كالفرس في اليمن وعمان وفي الحيرة، وكالحبشة في اليمن، وكالروم في أطراف الحجاز ومشارف الشام. والحقيقة أنهم لم يستقلوا استقلالاً حقيقياً إلا بالإسلام، ولم تعرفهم الأمم البعيدة

وتخنع لهم وتتحدث بصولتهم، ولم يقعدوا من التاريخ المقعد الذي أحلهم في الصف الأول من الأمم الفاتحة إلا بمحمد ﷺ.

فالسبب الذي به نهضوا وفتحوا، وسادوا وشادوا، وبلغوا هذه المبالغ كلها من المجد والرقي يجب علينا أن نبحث عنه وننشده، ونُلح في المسألة ونمعن في النشدان: هل هو باق في العرب وهم قد تأخروا برغم وجوده وتأخر معهم تلاميذهم الذين هم سائر المسلمين؟ أم قد ارتفع هذا السبب من بينهم، ولم يبق من الإيمان إلا اسمه، ومن الإسلام إلا رسمه؛ ومن القرآن إلا الترنم به، دون العمل بأوامره ونواهيه، إلى غير ذلك مما كان في صدر الملة؟

فقد المسلمين السبب الذي ساد به سلفهم

إذا فحصنا عن ذلك وجدنا أن السبب الذي به استقام هذا الأمر قد أصبح مفقوداً بلا نزاع وإن كان بقي منه شيء فكباقي الوشم في ظاهر اليد. فلو كان الله تعالى وعد المؤمنين بالعزة بمرد الاسم دون الفعل لكان يحق لنا أن نقول: أين عزة المؤمنين، من قوله تعالى ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾ ولو كان الله قد قال (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) بمعنى أنه ينصرهم بدون أدنى مزية فيهم سوى أنهم يعلنون كونهم مسلمين، لكان ثمة محل للتعجب من هذا الخذلان بعد ذلك الوعد الصريح بالنصر. ولكن النصوص التي في القرآن هي غير هذا، فالله غير مخلف وعده، والقرآن لم يتغير، وإنما المسلمون هم الذين تغيروا، والله تعالى أنذر بهذا فقال ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما

بأنفسهم﴾ فلما كان المسلمون قد غيروا ما بأنفسهم كان من العجب أن لا يغير الله ما بهم، وأن لا يبدلهم الذل والضعة، من ذلك العز وتلك الرفعة، بل كان ذلك منافياً للعدل الإلهي، ولله عز وجل هو العدل المحض.

كيف ترى في أمة ينصرها الله بدون عمل ويفيض عليها الخيرات التي يفيضها على آبائها؟ وذلك يكون مخالفاً للحكمة الإلهية، والله هو العزيز الحكيم. ما قولك في عزة بدون استحقاق، وفي غلة بدون حرث ولا زرع، وفي فوز بدون سعي ولا كسب، وفي تأييد بدون أدنى سبب يوجب التأييد؟ لا جرم إن هذا مما يغري بالكسل ويحول بينهم وبين العمل، بل مما يخالف النواميس التي أقام الله الكون عليها، ومما يستوي به الحق والباطل، والضار والنافع، وحاشا لله أن يفعل ذلك. ولو أيد الله مخلوقاً بدون عمل لأيد من دون عمل محمداً رسوله ولم يحوجه إلى القتال والنزال والنضال، واتباع سنن الكون الطبيعية للوصول إلى الغاية. وتصور أمة لله عندها مائة وهي تؤدي من المائة خمسة فقط، أتعد نفسها قد أدت ما عليها وتطمع في أن يكافئها الله كما كان يكافئ أجدادها الذين كانوا يؤدون المائة مائة، وإن

قصروا عن المائة أدوا بالأقل تسعين أو ثمانين؟ كلا. هذا مخالف لما وعد الله على رسله ومخالف للعقل والمنطق، وليس هذا هو الشرط الذي شرطه الله على المؤمنين، وليس هذا هو البيع الذي يستبشر به المؤمنون.

قال الله تعالى ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون، وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن، ومن أوفى بعهده من الله؟ فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به. وذلك هو الفوز العظيم﴾ فأين حالة المسلمين اليوم من هذا الوصف الذي في كتاب الله؟ وأين حالتهم من سلفهم الذين كانوا يتهافتون على الموت لإحراز الشهادة وكثيراً ما كانوا ينشدون الموت ولا يجدونه؟ وكان فارسهم يكر وهو يقول: إني لأشم ريح الجنة، ثم لا يزال يكر ويخوض غمرات الحرب حتى إذا استشهد قال هذا يوم الفرح، وإذا فاتته الشهادة برغم حرصه عليها عاد إلى قومه حزينا.

المقابلة بين حالي المسلمين والإفرنج اليوم

اليوم فقد المسلمون أو أكثرهم هذه الحماسة التي كانت عند آبائهم، وقد تخلق بها أعداء الإسلام الذين لم يوصهم كتابهم بها، فتجد أجنادهم تتوارد على حياض المنايا سباقاً، وتتلقى الأسنة والحراب عناقاً، ولقد كان مبلغ مفاداتهم بالنفائس وتضحيتهم للنفوس في الحرب العامة فوق تصور عقول البشر، كما يعلم ذلك كل أحد، فالألمان فقدوا نحو مليوني قتيل، والفرنسيون فقدوا مليوناً وأربعمائة ألف قتيل، والإنكليز فقدوا ستمائة ألف قتيل، والطليان فقدوا أربعمائة وستين ألف قتيل، والروس هلك منهم ما يفوق الإحصاء، وهلم جرا. هذا من جهة النفوس، وإنكلترا بذلت سبعة مليارات من الذهب (أي سبعة آلاف مليون جنيه) وفرنسة بذلت نحو مليارين، وألمانية أنفقت ثلاثة، وإيطالية

أنفقت خمسمائة مليون، والروسية أنفقت ما أوقع فيها المجاعة التي آلت إلى الثورة ثم إلى البلشفة وهلم جرا.

فليقل لي قائل: أية أمة مسلمة اليوم تقدم على ما أقدم عليه هؤلاء النصارى من بيع النفوس وإنفاق الأموال بدون حساب في سبيل أوطانهم ودولهم حتى نعجب لماذا آتاهم الله هذه المتعة والعظمة والثروة وحرم المسلمين اليوم أقل جزء منها؟

وقد يقال: إن المسلمين فقراء ليس عندهم هذه الأموال لينفقوا هذا الإنفاق كله. فنجيب بأننا نوزع هذه النفقات على الأوربيين بنسبة رأس المال ولا نكلف المسلمين إلا الإنفاق مثل الأوروبيين على هذه النسبة. فهل تسخو الأمم الإسلامية الحاضرة بما تسخو الأمم الأوروبية التي منها من قد أنفقت في الحرب العامة أكثر من نصف ثروتها؟

الجواب لا. ليس في المسلمين اليوم من يفعل ذلك لا أفراداً ولا أقواماً.

وقد يقال: إن الأمة التركية وهي أمة مسلمة قد أنفقت كل ما تقدر عليه في حرب اليونان ولم تقصر عن شأو الأوربيين في المفاداة بالأنفس والنفائس.

والجواب: نعم، قد كان ذلك، ومن الترك من بذل ثلث ثروته ومنهم من بذل نصف ثروته في هذه الحرب، ولكنهم لما فعلوا ذلك انقلبوا بنعمة من الله وفازوا، وحرروا أنفسهم واستقلوا، وارتفعوا بعد أن كانوا هووا، وعزوا بعد أن كانوا ذلوا. إذاً الأمم الإسلامية إذا ائتمرت في المفاداة بما أمرها به كتابها كما كان يفعله آباؤها، أو اقتدت على الأقل بما هو دأب الأوربيين اليوم من بذل النفوس والنفائس في سبيل حفظ بيضتها، وذود المعتدين عنها، لم تقطف من ثمرات التضحية إلا مثل ما قطفه غيرها. وانقلبت بنعمة من الله وفضل لم يمسسها سوء.

ولكن الأمم الإسلامية تريد حفظ استقلالها بدون مفاداة ولا تضحية، ولا بيع أنفس ولا مسابقة إلى الموت، ولا مجاهدة بالمال، وتطالب الله بالنصر على غير الشرط الذي اشترطه في النصر فإن الله سبحانه يقول ﴿**ولينصرن الله من نصره**﴾ ويقول ﴿**إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم**﴾.

ومن المعلوم أن الله تعالى غير محتاج إلى نصرة أحد، وإنما يريد بنصرته تعالى إطاعة أوامره واجتناب نواهيه.

ولكن المسلمين أهملوا جميع ما أمرهم به كتابهم (في ذلك) أو أكثره، واعتمدوا في استحقاق النصرة على كونهم مسلمين موحدين، وظنوا أن هذا يغنيهم عن الجهاد بالأنفس والأموال. ومنهم من اعتمد على الدعاء والابتهال لرب العزة لأنه يجده أيسر عليه من القتل والبذل. ولو كان مجرد الدعاء يغني عن الجهاد لاستغنى به النبي ﷺ وصحابته وسلف هذه الأمة فإنهم الطبقة التي هي أولى بأن يسمع الله دعاءها.

ولو كانت الآمال تبلغ بالأدعية والإذكار، دون الأعمال والآثار، لانتقضت سنن الكون، وبطل التشريع، ولم يقل الله تعالى ﴿**وأن ليس للإنسان إلا ما سعى**﴾ ولم يقل ﴿**وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله**﴾ ولم يقل للمعتذرين عن القتال ﴿**لا تعتذروا لن نؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم وسيرى الله عملكم ورسوله**﴾ الآية ولم يقل ﴿**إني لا أضيع عمل عامل منكم**﴾.

لقد ظن كثير من المسلمين أنهم مسلمون بمجرد الصلاة والصيام، وكل ما لا يكلفهم بذل دم ولا مال، وانتظروا على ذلك النصر من الله. وليس الأمر كذلك فإن

عزائم الإسلام لا تنحصر في الصلاة والصيام، ولا في الدعاء والاستغفار، وكيف يقبل الله الدعاء ممن قعدوا وتخلفوا، وقد كان في وسعهم أن ينهضوا ويبذلوا[1].

(1) يظهر أن الأمير لم يقرن الزكاة بالصلاة والصيام لعلمه بأن أكثرهم تركها وهي ركن الإسلام الدنيوي المادي، والصلاة ركنه الروحي، وهم يطلبون الدنيا ويتركون من الإسلام أهم أركانها ـ الزكاة والجهاد بالمال والنفس في سبيل الله ـ وقد وصف الله المؤمنين الصادقين، بالجهاد بأموالهم وأنفسهم فقدم ذكر المال وقال في سياق آيات القتال ﴿وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ أي بعدم الانفاق وقد قاتل الصحابة (رض) من منع الزكاة ولم يعتدوا بإسلامهم بدونها.

اعتذار المسلمين عن أنفسهم ورده

يقولون: ليس عند المسلمين ما عند الإفرنج من الثروة والسعة لينفقوا في أعمال الخير وفي مساعدة بعضهم بعضاً. فتقول لمن يحتج بهذه الحجة: إننا نرضى منهم أن ينفقوا على نسبة رؤوس أموالهم كما تقدم الكلام عند ذكر الجهاد بالمال. فهل المسلمون فاعلون؟

إننا نراهم قد محوا رسوم الأوقاف والمؤسسات الخيرية التي تركها آباؤهم، فضلاً عن كونهم لا يتبرعون بأموالهم الخاصة ولا يجرون مع الأوربيين في ميدان من جهة التبرع لأجل المشروعات العامة، فكيف يطمع المسلمون أن تكون لهم منزلة الأوروبيين في البسطة والقوة والسلطان وهم مقصرون عنهم بمراحل في الإيثار والتضحية؟ فإن العمل

لأجل السلطان في الأرض، أشبه بالحرث في الأرض، فبقدر ما تشتغل فيها هي تعطيك. وإن قصرت في العمل قصرت هي في الثمر. والمسلمون يريدون سلطاناً يشبه سلطان الأوروبيين بدون إيثار ولا بذل، ولا فقد شيء من لذائذهم، وينسون أن الله تعالى يقول ﴿**ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين**﴾.

وقد يقولون: إننا جربنا البذل والتضحية، وابتلينا بالنقص من الأموال والأنفس والثمرات وصبرنا ولم يفدنا ذلك شيئاً، وبقي الأوربيون مسلطين علينا. إني أنقل هذا القول عن بعضهم لأني قد سمعته كثيراً.

والجواب: هل يقدرون أن يقولوا لنا إن ما يدعونه من البذل والتضحية يشبه شيئاً مما يقوم به النصارى واليهود من هذا القبيل؟ أو إنه إذا نسب إليه يكون نسبته نسبة الواحد إلى المائة؟

عندنا مثال حديث العهد هو مسألة فلسطين: حدثت وقائع دموية بين العرب واليهود في فلسطين فأصيب بها أناس من الفريقين. فأخذ اليهود في جميع أقطار الدنيا يساعدون

المصابين من يهود فلسطين وأراد العالم الإسلامي أن يساعد عرب فلسطين كما هو طبيعي، فبلغت تبرعات اليهود لأبناء ملتهم من فلسطين مليون جنيه، وبلغت تبرعات المسلمين كلها 13 ألف جنيه أي نحو جزء من مائة.

فسيقولون: إن المسلمين لا يملكون مثل ثروة اليهود. ونعود فنجيبهم. نرضى منهم بأن ينفقوا في مساعدة ملتهم على قدر اليهود والإفرنج بالنسبة إلى رؤوس أموالهم، ولا نطالب منهم الفقراء الذين لا يملكون ما يزيد على كفاية عائلاتهم.

قال الله تعالى ﴿**ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل**﴾.

ثم قال تعالى ﴿**إنما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء رضوا بأن يكونوا مع الخوالف**﴾. ونجيب أيضاً: إنه وإن كان اليهود أغنى بالأموال من المسلمين فالمسلمون أكثر جداً بالعدد، لأن اليهود عشرون مليوناً، والمسلمين نحواً من ثلاثمائة وخمسين مليوناً. فلو أن كلاً من المسلمين تبرع

لفلسطين بقرش واحد ـ وهو الذي لا يعجز عنه أحد في العالم مهما اشتد فقره ـ لاجتمع من ذلك ثلاثة ملايين جنيه ونصف فلنترك تسعة أعشار المسلمين ونفرض هذه الإعانة لفلسطين على عشر واحد منهم أي على 35 مليون نسمة لا غير.

وهؤلاء الخمسة والثلاثون مليون نسمة نجدهم حول فلسطين في لمحة بصر. فإن مسلمي مصر وسورية وفلسطين والعراق ونجد والحجاز واليمن وعمان هم 35 مليوناً. ولنتقاض ن هؤلاء أداء قرش واحد عن كل جمجمة، فماذا يجتمع لنا من ذلك؟ الجواب: يجتمع ثلاثمائة وخمسون ألف جنيه.

فالمسلمون قد تبرعوا عن هذه الأعداد كلها بثلاثة عشر ألف جنيه أي بما يساوي نحو ثلثي عشر القرش عن كل نسمة من عشر عددهم.

أهذا ما تريدون أن تسموه "تضحية"؟

أو يمثل هذا تجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم؟

أو هذه درجة نجدتكم لإخوانكم في الدين وجيرانكم في الوطن والقائمين عنكم بالدفاع عن المسجد الأقصى الذي هو "ثالث الحرمين وأول القبلتين؟" أفلم يقل الله تعالى (إنما المؤمنون أخوة) أفهذه نجدة الأخ لأخيه؟

يقولون لماذا سادت الأمة الإنكليزية هذه السيادة كلها في العالم؟ تجيبهم: إنها سادت بالأخلاق وبالمبادئ. حدثني رجل ثقة إنه يعرف إنكليزياً ذا منصب في الشرق كان يأمر خادمه أن يشتري له الحوائج اللازمة لبيته يومياً من دكان رجل إنكليزي في البلدة التي هم فيها. فجاءه الخادم مرة بجدول حساب وفر عليه به 20 جنيهاً في مدة شهر. فسأله الإنكليزي: كيف أمكنك هذا التوفير؟ فقال الخادم: تركنا دكان الإنكليزي الذي كنا نشتري منه وصرنا نشتري من دكان أحد الأهالي العرب. فقال له الإنكليزي: ارجع إلى دكان الإنكليزي الذي كنا نشتري منه. فقال الخادم: أو لو كان ذلك يستلزم إنفاق 20 جنيهاً زيادة؟ قال الإنكليزي: ولو كان يستلزم إنفاق 20 جنيهاً زيادة. وسمعت أن كثيرين من الإنكليز الذين في الأقطار لا يشترون شيئاً ذا قيمة إلا من بلادهم ويرسلون إلى لندرة فيوصون على كل ما يحتاجون إليه حتى لا يذهب مالهم إلى الخارج. أفنقيس

هذا بأعمال المسلمين الذين مهما أوصيتهم بالشراء من أبناء جلدتهم أو أوطانهم وعلموا أنهم يقدرون أن يوفروا في السلعة الواحدة نصف قرش إذا أخذوها من الإفرنجي تركوا ابن جلدتهم أو ملتهم ورجحوا الإفرنجي؟ أفلم يكن سبب هبوط مقاطعة العرب لليهود في فلسطين أشياء كهذه؟ حرموا أنفسهم أمضى سلاح في يدهم وهو المقاطعة في الأخذ والعطاء مع اليهود من أجل فروق تافهة مؤقتة ونسوا أن الضرر الذي يصيبهم من الأخذ والعطاء مع اليهود هو أعظم ألف مرة من ضرر هاتيك الفروق الزهيدة.

وكنت مرة أشكو إلى أحد كبار المصريين إهمال إخواننا المصريين لمجاهدي طرابلس وبرقة الذين إن لم تجب عليهم نجدتهم قياماً بواجب الأخوة الإسلامية والجوار، وجبت عليهم احتياطاً من وراء استقلال مصر واستقبال مصر، لأنه كما أن وجود الإنكليز في السودان هو تهديد دائم لمصر، فوجود الطليان في برقة هو تهديد دائم لها أيضاً. فكان جواب ذلك السيدلي: لقد بذل المصريون مبالغ وفيرة يوم شنت إيطالية الغارة على طرابلس ولم يستفيدوا شيئاً فإن إيطالية لم تلبث أن أخذتها.

فقلت له: إن المصريين قد نهضوا في الحرب الطرابلسية نهضة هي بدون شك ترضي كل مسلم، بل ترضي كل إنسان يقدر قدر الحمية. ولكن المبلغ الذي تبرعوا به يومئذ معلومة وهو 150 ألف جنيه. فهل يطمع المسلمون في أنحاء المعمور أن ينقذوا طرابلس من براثن إيطالية بمائة وخمسين ألف جنيه؟ وهل هذه التضحية تقاس في كثير أو قليل إلى التضحيات التي قامت بها إيطالية بالمال والرجال؟

كانت إعانة مصر في الحرب الطرابلسية 150 ألف جنيه، وأنفقت الدولة العثمانية على تلك الحرب نحو مليون جنيه.

فانظر إلى ما كان لذلك من النتائج:

(النتيجة الأولى) وهي أهم شيء: حفظ شرف الإسلام، وإفهام الأوروبيون إن الإسلام لم يمت، وإن المسلمين لا يسلمون بلدانهم بدون حرب، وفي ذلك من الفائدة المادية والمعنوية للإسلام ما لا ينكره إلا كل مكابر.

(النتيجة الثانية) إن هذا المبلغ الضئيل بالنسبة إلى نفقات الدول الحربية قد كان السبب في توطين

الطرابلسيين أنفسهم على المقاومة والمجاهدة بما رأوا من نجدة إخوانهم لهم. فكانت هذه المقاومة سبباً لتجشم إيطالية المعتدية من المشاق والخسائر ما هو فوق الوصف إلى أن صار كثير من ساسة الطليان يصرحون بندمهم على هذه الغارة الطرابلسية.

(النتيجة الثالثة) مهما يكن من عدد القتلى الذين فقدهم العرب في هذه الحرب فإن مجموع قتلى الطليان إلى اليوم يفوق مجموع قتلى العرب أضعافاً مضاعفة. فلقد لقي الطليان في هذه الحرب من الأهوال مالا يتسع لوصفه مقالة أو رسالة. وفي واقعة واحدة هي واقعة "الفويهات" على باب بنغازي ثبت فيها 150 مجاهداً عربياً لثلاثة آلاف جندي طلياني من الفجر إلى غروب الشمس إلى أن انقرضوا جميعاً، إلا أفذاذاً أتي عليهم الليل، ورجع العدو ولما يموتوا. وبينما كان العرب في حزن عظيم على من فقدوهم في تلك المعركة إذ جاءهم الخبر البرقي من الإستانة عن برقية وردت إليها سراً من برلين عن برقية رقمية جاءت من سفارة الألمان في رومية بأنه سقط في هذه المعركة ألف وخمسمائة جندي من الطليان، وأصاب الجنون سبعة من ضباطهم. وهذه وقعة

من خمسين وقعة بالأقل تضاهيها، فالمسلمون قد قاتلوا في هذه المعركة جيشاً يفوقهم في العدد عشرين ضعفاً وقتلوا نصفه أي قتلوا عشرة أضعافهم وفي حالة الضعف أن يغلوا ضعفيهم فقط كما قال في سورة الأنفال ﴿يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون. الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً، فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين﴾.

(النتيجة الرابعة) إنه قد كانت نفقات إيطالية في الحرب الطرابلسية في السنة الأولى منها أي من سنة 1911 إلى سنة 1912 نحو مائة مليون جنيه، ويظن أنها من عشرين سنة إلى اليوم إذا المقاومة لم تنقطع حتى هذه الساعة ـ قد بلغت ثلاثمائة مليون جنيه.

فهذا كان كله نتيجة تلك الإعانة القليلة والنفقات الضئيلة التي قام بها المسلمون في تلك الحرب، ولكن المسلين ينتظرون أن تنهزم إيطالية الدولة الكبيرة التي أهلها

41 مليون نسمة ودخلها السنوي 200 مليون جنيه في صدمة واحدة أو في السنة الأولى من الحرب[1] وإن لم يتحقق أملهم

---

(1) أي هذا عددها، وهذا دخلها، وهذا إنفاقها على الحرب. وأما عصبيتها وضراوتها في سفك دماء المسلمين فحسب المسلم الذي لم يفسده التفرنج والإلحاد أن يقرأ النشيد الطلياني الذي ننقل ترجمته عن جريدة الفتح نقلاً عن جريدة الشرق عدد 543 وهو: إن من أعظم الآلام لشاب في العشرين من عمره أن لا يحارب في سبيل وطنه مع دوام القتال في طرابلس، والراية المثلثة الألوان والموسيقى الحربية تنبهان النفس المقدامة. يا أماه أفي صلاتك ولا تبكي بل اضحكي وتأملي، ألا تعلمين إن إيطاليا تدعوني وأنا ذاهب إلى (طرابلس) فرحاً مسروراً لأبذل دمي في سبيل سحق الأمة الملعونة (كذا) ولأحارب الديانة الإسلامية التي تجيز البنات الأبكار للسلطان*

سأقاتل بكل قوتي لمحو القرآن (كذا)

ليس بأهل للمجد من لم يمت إيطاليا حقاً

تحمسي أيتها الوالدة، تذكري (كاروني) التي جادت بأولادها في سبيل وطنها... يا أماه أنا مسافر، ألا تعلمين أن على الأمواج الزرقاء الصافية من بحر ستلقي سفائننا المراسي؟ أنا ذاهب إلى طرابلس مسروراً لأن رايتنا المثلثة الألوان تدعوني، وذلك القطر تحت ظلها لا تموتي لأننا في طريق الحياة، وإن لم أرجع فلا تبكي على ولدك، ولكن اذهبي في كل مساء وزوري المقبرة ونسائم الأصيل تحمل إلى طرابلس وداعك الذي يأبى الحداد على قبر فلذة كبدك، وإن سألك أحد عن عدم حدادك علي فأجيبه: إنه مات في محاربة الإسلام. الطبل يقرع يا أماه. أنا ذاهب أيضاً . ألا تسمعين هزج الحرب، دعيني أعانقك وأذهب!

---

* الديانة الإسلامية لا تجيز للسلطان إلا ما تجيزه لغيره من المسلمين وهو تزوج البكر والثيب، ولكن الإفرنج تبيح لهم نصرانيتهم الافتراء على الإسلام وتبيح لهم مدنيتهم الزنا حتى أفسدوا كل قطر دخلوه ببغاياهم ولاسيما الطليان منهم.

هذا انقطع منهم كل رجاء وبطلت كل حركة، وأصاب بعضهم اليأس الذي هو مرادف للكفر بصريح الذكر الحكيم (أنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون)

ولنضرب مثلاً ثالثاً ونمسك بعده عن ضرب الأمثال لأنها لا تعد ولا تحصى:

قام أهل الريف في وجه الدولة الإسبانية مدة بضع سنين إلى أن تغلبوا عليها وطردوا جيوشها بعد أن أبادوا منهم في واقعة واحدة 26 ألف جندي وغنموا 180 مدفعاً وجميع أهل الريف بقضهم وقضيضهم ثمانمائة ألف نسمة. وعدد أهالي إسبانية 22 مليون نسمة، وأراضي الريف أكثرها قاحل والأهالي فيه فقراء يعيشون من كسب أيديهم، ولقد قاموا بعمل أدهش أهل الأرض بالطول والعرض.

فلو كان أهل الريف نصارى لانثالت عليهم الملايين من الجنيهات من كل الجهات إما بطريقة خفية وإما بواسطة جمعية الصليب الأحمر في سبيل مداواة جرحاهم.

فليقل لنا المسلمون كم جنيهاً قدموا للريف في ذلك الوقت؟

ثم تألب الفريسيس مع الإسبانيول وحشدوا لحرب الريفيين 300 ألف مقاتل وحصروا الريف من كل جانب من البر والبحر، وكانت طياراتهم القاذفة بالديناميت على قرى الريفيين تحصى بالمئات لا بالعشرات ولم تكف طيارات الفرنسيس والإسبانيول حتى جاء سرب طيارات أمريكية من نيويورك نجدة لفرنسة وإسبانية (النصرانيتين على المسلمين لأنهم مسلمون)

هذا كله والمسلمون ينظرون إلى حرب الريف مكتوفي الأيدي. ولبثوا مكتوفي الأيدي مدة سنة. وأخيراً نهض منهم أفراد لجمع شيء من أجل جرحى الريف، ولأجل بعث الحمية في الناس لم يكتف محرر هذه السطور بالكتابة بل تبرعت بأربعة جنيهات لأجل القدوة فماذا كان مجموع تلك الإعانات من كل العالم الإسلامي؟ الجواب 1500 جنيه.

خيانة بعض المسلمين لدينهم ووطنهم واعتذارهم الباطل

ويا ليت المسلمين وقفوا عند هذا الحد في خذلان الريفيين بل قامت منهم فئات يقاتلون الريفيين بأشد مما يقاتلون به الأجانب، وتألبت على محمد ابن عبد الكريم قبائل وافرة العدد شديدة البأس ومالؤوا الفرنسيس والإسبانيول على أبناء ملتهم ووطنهم تزلفاً إلى الفرنسيس والإسبانيول وابتغاء الحظوة لديهم. وقد جرى مثل ذلك عندنا في سورية يوم الثورة على فرنسة، وجرى في بلاد إسلامية كثيرة، أفبمثل هذه الأعمال يطالب أخونا الشيخ بسيوني عمران ربه بما وعد تعالى به من جعل العزة للمؤمنين؟

وإذا سألت هؤلاء المسلمين الممالئين للعدو على إخوانهم: كيف تفعلون مثل هذا وأنتم تعلمون أنه مخالف للدين وللشرف وللفتوة وللمروءة وللمصلحة وللسياسة؟ أجابوك: كيف نصنع فإن الأجانب انتدبونا ولو لم نفعل لبطشوا بنا، فاضطررنا إلى القتال في صفوفهم خوفاً منهم؟ ونسوا قوله تعالى ﴿**أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين**﴾ وقوله تعالى: ﴿**فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين**﴾.

وكلام مثل هؤلاء في الاعتذار غير صحيح فإن الأجانب قد ندبوا كثيراً من المسلمين إلى خيانات كهذه فلم يجيبوهم ولم تنقض عليهم السماء من فوقهم، ولا خسفت بهم الأرض من تحتهم، ثم إنه إن كان الأجانب المحتلون لبلاد المسلمين قد أصبحوا يغضبون على المسلمين الذين لا يلبون دعوتهم إلى خيانة قومهم، فإنما كان ذلك من أجل أن كثيرين من المسلمين كانوا يعرضون عليهم خدمتهم في مقاومة إخوانهم ويقومون بها بكل نشاط ومناصحة، ويبدون كل أمانة لهم في أثناء تلك الخيانة. ولولا هذا التبرع بالخيانة، والتسرع على مظاهرة الأجنبي على ابن الملة، لما استأسد الأجنبي وصار يتحكم في المسلمين هذا التحكم

الفـاحش، ويتقاضـاهم أن يخـالفوا قواعـد دينـهم ومقتضـى مصلحة دنياهم من أجل مصلحته، بل قام يحملهم على الموت لأجل الموت.

فإن الموت موتان: أحدهما الموت لأجل الحيـاة وهـو المـوت الذي حث عليه القرآن المؤمنين إذا مد العدو يده إليهم، وهـو الموت الذي قال عنه الشاعر العربي:

تـأخرت أسـتبقي الحيـاة فلـم أجـد

لنفســـي حيـــاة مثـــل إن أتقـــدما

وهـو المـوت الـذي يموتـه الإفرنسـي لأجـل حيـاة فرنسـة، والألماني لأجل الحياة ألمانية، والإنكليزي في سبيل بريطانية العظمى ـ وهلم جراً ـ ويجده على نفسه واجباً لا يتأخر عن أدائه طرفه عين.

وأما الموت الثاني فهو الموت لأجل استمرار الموت، وهـو الموت الذي يموته المسلمون في خدمة الدول التي استولت على بلادهـم، وذلـك أنهـم يموتـون حتـى ينصـروها علـى أعـدائها كما يموت المغربي مثلاً حتى تنتصر فرنسة على ألمانية مثلاً. ويموت الهندي حتى تتغلب إنكلترة على أي عـدو لها. ويمـوت

التتري في سبيل ظفر الروسية. والحال أنه بانتصار فرنسة على أعدائها تزداد في المغرب غطرسة وظلماً وابتزازاً لأملاك المسلمين وهضماً لحقوقهم. وذلك كما حصل بعد الحرب العامة إذ ازداد طمع الفرنسيس في أهل المغرب وحدثوا أنفسهم بتنصير البربر.

وبالاختصار يموت المغربي على ضفاف الرين أو في سورية حتى يزداد موتاً في المغرب، لأن كل طائلة تفوز بها فرنسة في الخارج هي زيادة في قهر المغربي وإعناته وإذلاله مما لا سبيل للمناكرة فيه، ومما قد ثبت بالتجربة. وكذلك موت الهندي في سبيل نصرة إنكلترة هو تطويل في أجل عبودية الهند. وكذلك موت التتري في خدمة الروسية لا عاقبة له سوى ازدياد قهر الروس للتتر. وهلم جراً.

وهذا الموت لأجل الموت هو ما كان بخط منحن كما يقال، أي باعتبار النتيجة، ولكنه هناك موت لأجل الموت مباشرة بدون واسطة، وهو عندما يموت المغربي في قتال أيه المغربي الذي قام يحاول أن يزحزح شيئاً من النير الإفرنسي الذي كان يدق عنقه، وإن لم يدق عنقه بتاتاً استحياه حياة هي أشبه بالموت.

ولو انحصرت هذه الأمور في العوام والجهلاء لعذرناهم بجهلهم، وقلنا أنهم لا يدرون الكتاب ولا السنة ولا السياسة الدنيوية، ولا الأحوال العصرية، وأنهم إنما يساقون كما تساق بهيمة الأنعام إلى الذبح.

ولكن الأنكى هو خيانة الخواص. مثال ذلك الوزير المقري الذي هو أشد تعصباً لقضية رفع الشريعة الإسلامية من بين البربر من الفرنسيس أنفسهم. ومثله البغدادي باشا فاس الذي طرح نحوة مائة شخص من شبان فاس وجلدهم بالسياط لكونهم اجتمعوا في جامع القرويين وأخذوا يرددون دعاء "يا لطيف الطف بما جرت به المقادر، ولا تفرق بيننا وبين أخواننا البربر" ومفتي فاس الذي أفتى بأن إلغاء الشرع الإسلامي من بين البربر ليس بإخراج للبربر من الإسلام! وهلم جرا.

وكل من هؤلاء الخونة المبارقين أخزاهم الله قد بلغ من الكبر عتيا، وانتهى من أموال الأمة شبعاً وربا، وهو لا يزال حريصاً على الزلفى إلى فرنسة، وإثبات صداقته لها ولو

بضياع دينه ودنياه، حتى تبقى عليه منصبه وحظوظه في هذه البقية الباقية من حياته التاعسة[1].

وليس واحد من هؤلاء ولا من في ضربهم في المغرب ألا وهو مطلع على نيات فرنسة وعلى مراميها من جهة هذا النظام الجديد لأمة البربر، وليس فيهم إلا من هو عارف بوجود جيش من القسوس والرهبان والراهبات يجوس خلال بلاد البربر ويبني الكنائس ويتصيد اللقطاء والأيتام والفقراء وضعفاء الإيمان، وليس فيهم إلا من هو عالم تمنع فرنسة فقهاء الإسلام والوعاظ من التجوال بين البربر حتى ترتفع الحواجز أمام دعوة المبشرين إلى النصرانية. وقد يكون المقري والبغدادي هذان هما في مقدمة الموقعين على الأوامر بمنع علماء الإسلام وحملة القرآن من الدخول إلى قرى البربر. وقد يكون المقري هذا هو الذي خصص المبلغ من مال المخزن لجريدة "مراكش الكاثوليكية" التي تطعن

---

(1) الغريب في هذا أن أمثال هؤلاء الخونة يبيعون بلادهم كلها للأجنبي بثمن خسيس هو جزء منها لا من مال الأجنبي، ولو أخلصوا في صده عنها لكان لهم منها أكثر مما يعطيهم الأجنبي منها ثم يكون باقيها لأولادهم وأهليهم وإخوانهم في الدين مع العز والشرف.

في الإسلام، وتقذف محمداً عليه الصلاة والسلام، ولدينا كثير من أعدادها التي تتضمن هذه المطاعن.

وبعد هذا فمن يدري؟ فقد يكون المقري مصلياً وصائماً وبيده سبحة يقرأ عليها أوراداً. ومن يدري؟ فقد يكون البغدادي السيئ الذكر ممن يتمسحون بالقبور ويستغيثون بالأولياء ويتظاهرون بهذا الورع الكاذب. وأما المفتي فهو المفتي فلا حاجة على تثبيت كونه يصلي الخمس، ويصوم ويتهجد، وبوتر وبتنفل الخ...

وقد مضى علينا نحن في سورية شيء من هذا لأوائل عهد الاحتلال لكن لم تكن خيانة هؤلاء المعممين في قضية دينية مباشرة.. فقد اقترحت عليهم فرنسة أن يمضوا برقية إلى جمعية الأمم ينكرون بها عمل المؤتمر السوري الفلسطيني المطالب باستقلال سورية وفلسطين، أمضاه منهم عمائم مكورة، وطيالس محررة مجررة، ورقاب غليظة، وبطون عظيمة، وإن لم أقل الآن: أخزاهم الله، أخشى عتاب إخواننا المغاربة الذين يرونني خصصت بهذا الدعاء صدرهم الأعظم، ومفتيهم الأكبر، وأعفيت معممي سورية، فلذلك يقضي العدل بأن نقول أخزاهم الله أجمعين، أخزى الله

الذين منهم في المشرق والمغرب ممن يوقعون على اقتراحات الأجانب المضرة بالدين والوطن.

ولعل الأخ الشيخ بسيوني عمران يقول: إن هؤلاء أفراد قلائل فلا يجوز أن نجعل الأمة الإسلامية مسؤولة عن مخازيهم وموبقاتهم.

والجواب على ذلك: أن الظلم يخص والبلاء يعم كما لا يخفى، ولكني لا أسلم أن هؤلاء أفراد قلائل، وأن الأمة غير مسؤولة! إذ لو كان وراء هؤلاء أمة يخشونها ما تجاسروا على الإتجار بدينها بعد الاتجار بدنياها، بل كانوا لو اقترح عليهم الفرنسيس اقتراحاً مضراً بملتهم وأمتهم ولم يقدروا على رده اعتزلوا مناصبهم، ولزموا بيوتهم، وكان الفرنسيس كلفوا بالعمل غيرهم، فإذا أبى الخلف ما أباه السلف مرة بعد مرة علم الفرنسيس أن لا فائدة في الإصرار، فعدلوا عن دسيستهم البربرية وما أشبهها، ولكنهم مصرون عليها بسب استظهارهم بأناس ممن يزعمون أنهم "مسلمون" فهم يهدمون الإسلام بمعاول في أيدي أبنائه، ويقولون لسنا من هذا الأمر في قبيل ولا دبير.

أفلا ترى كيف قالوا عن الظهير البربري أنه قد أصدره السلطان وحكومة المخزن؟

أفهذا هو الإسلام الذي يناشد الله الشيخ بسيوني عمران بتأييد أهله؟ قال الله تعالى ﴿**وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون**﴾.

ولاشك أن "المسلمين" الذين يبلغون هذه الدركات من الانحطاط وتتركهم الأمة الإسلامية وشأنهم يلعبون بحقوقها يستحقون للإسلام التمحيص الذي هو فيه[1] فإنما سمح الله بأن يستولي الأجانب على ديار المسلمين ويجعلوهم خولاً، ويغتصبوا جميع حقوقهم، تعليماً لهم وتهذيباً، وتصفية وتطهيراً كما يصفى الذهب الأبريز بالنار.

قال الله تعالى ﴿**ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون**﴾.

---

(1) هكذا في الأصل ومعنى يستحقون هنا يستوجبون على قول الفارابي واللام في الإسلام للتقوية والمراد به المسلمون. والمعنى يستوجبون بجرائهم تمحيص المسلمين في جملتهم ليميز الله الخبيث من الطيب، ويفسره ما بعده وهو مستنبط من قوله تعالى في سياق غزوة أحد ﴿وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين﴾ فليراجع السياق من سورة آل عمران وتفسيره المؤثر في الجزء الرابع من تفسير المنار.

لقد أصبح الفساد إلى حد أن أكبر أعداء المسلمين هم المسلمون. وأن المسلم إذا أراد أن يخدم ملته أو وطنه قد يخشى أن يبوح بالسر من ذلك لأخيه، إذ يحتمل أن يذهب هذا إلى الأجانب المحتلين فيقدم لهم بحق أخيه الوشاية التي يرجو بها بعض الزلفى، وقد يكون أمله بها فارغاً.

ولله در الملك ابن سعود حيث يقول: ما أخشى على المسلمين إلا من المسلمين، وما أخشى من الأجانب كما أخشى من المسلمين[1] فإن لم يستطيعوا فبقلوبهم[2] فأبوا ألا أن يكونوا بطانة للأجانب على قومهم، وأبو إلا أن يكونوا رواداً لهم على بلادهم، وأبوا إلا أن يكونوا مطايا للأجانب على أوطانهم، وتراهم مع ذلك وافرين ناعمي البال،

---

(1) وقال في محفل حافل بحجاج الأقطار ـ وقد طالبه مصري أزهري بمحاربة الإنكليز والفرنسيس المعتدين على المسلمين ذاكراً عداوتهم لهم: الإنكليز والفرنسيس معذورون إذا عادونا لأنه لا يجمعنا بهم جنس ولا دين ولا لغة ولا مصلحة، ولكن المصيبة التي لا عذر لأحد فيها أن المسلمين أصبحوا أعداء أنفسهم، وأنا والله لا أخاف الأجانب وإنما أخاف من المسلمين، فلو حاربت الإنكليز لما حاربوني إلا بجيش من المسلمين.

(2) إشارة إلى حديث "من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان" رواه أحمد ومسلم وأصحاب السنن كلهم وهذا في وجوب تغيير المنكرات يفعلها المسلم، فماذا يقال في مقاومة هدم الإسلام من أساسه؟

متمتعين بالهناء وصفاء العيش، وهم يأكلون مما باعوا من تراث المسلمين، ومما فجروا من دماء المسلمين، وينامون مستريحين. مثل هؤلاء ليس لهم وجدان يعذبهم من الداخل، ولا نجد من المسلمين من يجرأ أن يعذبهم من الخارج.

لم نكن لنطلق الكلام إطلاقاً على العالم الإسلام في هذا الموضوع، فإن الأمة الأفغانية مثلاً لا يمكن أحداً أن يحطب فيها في حبل الأجانب علناً ويبقى حياً، والنجديون لا يوجد فيهم من يجرأ أن يمالئ الأجانب على قومه، والمصريون قد ارتقت تربيتهم السياسية كثيراً عن ذي قبل، فأصبحت مجاهرة أحدهم بالميل للأجنبي أو تفضيل حكم الأجنبي خطراً عليه. فإما في سائر بلاد الإسلام فمن شاء من المسلمين أن يخلع الرسن ويجاهر بالعصوبة لعدو دينه وبلده فلا يخشى شراً، ولا يحاذر قلقاً ولا أرقاً.

أفلمثل هؤلاء يقول الله تعالى ﴿**وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئاً**﴾.

حاشى لله أن يكون تعالى عني بهؤلاء "المسلمين" الذين يخونون ملتهم ويسعون بين يدي أعدائها ويناصبون أخوانهم العداوة ابتغاء مرضاة الأجانب والحصول على دنيا زائلة وحطام فانٍ، كيف وقد قرن الإيمان بلازمة وهو عمل الصالحات؟ بئسما شروا به أنفسهم. وكذلك لا يعني الله بهؤلاء المسلمين الذين إن لم يكونوا خامروا على قومهم، وسعوا بين أيدي الأجانب في خراب أمتهم، وأوطأوا مناكبهم لركوب الغريب الطامح، فإنهم اكتفوا من الإسلام بالركوع والسجود، والأوراد والأذكار، وإطالة السبحة، والتلوم في السجدة، وظنوا أن هذا هو الإسلام، ولو كان هذا كافياً في إسلام المرء وفوزه في الدنيا والأخرى لما كان القرآن ملآن بالتحريض على الجهاد، والإيثار على النفس، والصدق والصبر، ونجدة المؤمن لأخيه، والعدل والإحسان، وجميع مكارم الأخلاق. ولو كان هذا كافياً لأجل التحقق بالإسلام لما قال الله تعالى: ﴿**قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في**

سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ [1].

أفيقدر أخونا الشيخ بسيوني عمران أو غيره أن يقول: إن المسلمين اليوم إلا النادر الأندر، والكبريت الأحمر، يفضلون الله ورسوله على آبائهم وأبنائهم وأخوانهم وأزواجهم وتجارتهم وأموالهم ومساكنهم؟ أو يؤثرون حب الله ورسوله ـ وإنما حب الله ورسوله إقامة الإسلام ـ على الجزء اليسير من أموال اقترفوها، وتجارة يخشون كسادها؟

لنعمل هذه التجربة.. فبضدها تتبين الأشياء.

لنفرض أن مسألة تنصير البربر دخلت في طور النجاح، وانتدب البابا الكاثوليك الذين في العالم لبذل الأموال اللازمة لهذا التحويل الذي تتوخاه فرنسة في البربر من دين الإسلام إلى دين النصرانية، فكم مليوناً تظن من الجنيهات يدر على المبشرين والرهبان والراهبات لبناء الكنائس والمدارس والملاجئ والمستشفيات ومراكز الأسقفيات وما أشبه ذلك لإتمام هذا العمل الذي تضم به الكثلكة ثمانية

---

[1] راجع تفسير الآية وما قبلها في ص 224 ـ 242 ج10 من تفسير المنار.

ملايين من البرابرة إلى الأربعمائة مليون كاثوليكي الذين في العالم؟

لا شك أن الجواب يكون: عدة ملايين تجمع في بضعة أشهر.

فإن قيل للبروتستانت: تعالوا فقد أذناكم بتنصير البرابرة فابذلوا في هذه السبيل ما أمنكم، فإنها تدر حينئذ الملايين بقدر ضعفي ما يدر من الكاثوليك وفي مدة أقصر من المدة التي يجتمع فيها المال الذي يجود به الكاثوليك.

فلنقل للمسلمين: إن البرابرة صاروا على شفا الخروج من الإسلام، وإن الأس في هذا الصبوء عن دين الإسلام هو الجهل. فعلينا أن نرسل إليهم علماء ووعاظاً ليتفقهوا في الدين، وإن نبني لهم المساجد والمدارس والكتاتيب والملاجئ إلى غير ذلك من الوسائل التي تمسك بحجزاتهم عن مفارقة الإسلام والمسلمين.

فكم تظن المبلغ يجود به المسلمون بعد اللتيا والتي لهذا العمل؟ لا أظن أنهم يجودون بما يتجاوز جزءاً من مائة مما يبذله الكاثوليك أو البروتستانت.

فهذه هي حمية المسيحيين على دينهم وهذه هي حمية المسلمين، ومن الناس من يسأل عن أسباب انحطاط المسلمين وقصورهم عن مباراة سواهم، ولو تأمل في هذه الفروق في النهضة والحمية لوجد عندها الجواب الكافي.

ومن أغرب الأمور أن نرى الأوربيين ودعاتهم وتلاميذهم من الشرقيين بعد هذا كله يتهمون المسلمين بالتعصب الديني، وينبزونهم بلقبه، وينتحلون لأنفسهم التساهل في الدين: إن هذا والله لعجب عجاب.

وها أنا ذا الآن في كتابتي هذه التي معناها الدفاع لا التجاوز، والأستاذ الأكبر صاحب المنار، وعبد الحميد بك سعيد رئيس جمعية الشبان المسلمين، والأستاذ صاحب مجلة الفتح ـ وغيرنا من الرجال الذين يبغون منع الاعتداء على الإسلام وينادون المسلمين ليتنبهوا للخطر المحدق بهم ـ متهمون بالتعصب الديني ومنبوزون بهذه الكلمة، لا بين غير المسلمين فقط، بل بين المسلمين الجغرافيين أيضاً ـ أعني الذين يتباهون بأن سياستهم "لا دينية" وطالما صرحوا بأنهم لا يقيمون للدين وزناً، وطالما تزلفوا إلى المسيحيين بكونهم هم لا يدافعون عن الدين الإسلامي كما يدافع زيد وعمرو...

فالمسلم إذاً لا يخلص من لقب "متعصب" إلا إذا سمع أن الفرنسيس يحاولون تنصير البربر فمر بذلك كأن لم يسمع شيئاً، وإلا إذا سمع أن الهولانديين نصروا مائة ألف ـ وقد زعم أحد نواب البرلمان الهولاندي أنهم فازوا بتنصير مليون مسلم من مسلمي الجاوي وهز كتفه قائلاً: أنا لا يهمني أكان الجاوي مسلماً أم مسيحياً.. ـ هنالك "المسلم" يصير "راقياً" ويعد "عصرياً" ويقال فيه كل خير!؟

وأما الأوروبي فله أن يبذل القناطير المقنطرة على بث الدعاية المسيحية بين المسلمين، وله أن يحميها بالمدافع والطيارات والدبابات، وله أن يحول بين المسلمين ودينهم بالذات وبالواسطة، وله أن يدس كل دسيسة ممكنة لهدم الإسلام في بلاد الإسلام، وليس عليه حرج في ذلك، ولا يسلبه هذا العمل صفة "راق" و"متمدن" و"عصري" وأغرب من هذا أنه لا يسلبه نعت "مدني" و"لا ديني" و"متساهل". وهؤلاء "المسلمون الجغرافيون" برغم هذه الشواهد الباهرة للأعين، وبرغم ما عملته جمهورية فرسة "اللادينية" في قصية البربر لمآرب دينية كاثوليكية، وبرغم حماية هولاندة لمبشري الإنجيل في الجاوى، وبرغم قرار الحكومة البلجيكية

رسمياً إكمال تنصير أهل الكونغو، وبرغم منع الإنكليز في الأوغاندة وفي دار السلام ـ وكذا السودان ـ بث الدعاية الإسلامية بين الزنوج، وبرغم أمور كثيرة لا يسعنا الآن شرحها، لا يزالون يخدعون المسلمون قائلين لهم: إن أوروبا قد رفست الدين برجلها وسارت على خطة لا دينية، وبذلك قد نجحت ونحن لن نفلح ما دمنا سائرين على خطة إسلامية[1].

قد قام يبث هذه السفسطة أناسٌ في تركيا ووجدوا ممن تلقاها بالقبول عدداً كبيراً. وترى أناساً في مصر والشام والعراق وفارس يقولون بها ويكابرون في المحسوس ولا يبالون، لأنهم يجدون على كل الأحوال من الأغرار من يصدقهم.

---

(1) وقد صدقوا لكن بمعنى أننا لن نفلح ما دمنا على هذه الخطة التي نكذب بتسميتها إسلامية وأننا إنما نفلح إذا قمنا بحقوق إسلامنا كما يقومون بحقوق دينهم أو أشد.

أهم أسباب تأخر المسلمين

فمن أعظم أسباب تأخر المسلمين الجهل، الذي يجعل فيهم من لا يميز بين الخمر والخل، فيتقبل السفسطة قضية مسلمة ولا يعرف أن يرد عليها.

ومن أعظم أسباب تأخر المسلمين العلم الناقص، الذي هو أشد خطراً من الجهل البسيط، لأن الجاهل إذا قيض الله له مرشداً عالماً أطاعه ولم يتفلسف عليه، فإما صاحب العلم الناقص فهو لا يدري ولا يقتنع بأنه لا يدري، وكما قيل: ابتلاؤكم بمجنون خير من ابتلائكم بنصف مجنون، أقول: ابتلاؤكم بجاهل، خير من ابتلائكم بشبه عالم.

ومن أعظم أسباب تأخر المسلمين فساد الأخلاق، بفقد الفصائل التي حث عليها القرآن، والعزائم التي حمل عليها

سلف هذه الأمة وبها أدركوا ما أدركوه من الفلاح، والأخلاق في تكوين الأمم فوق المعارف، ولله در شوقي إذ قال:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت

فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ومن أكبر عوامل تقهقر المسلمين فساد أخلاق أمرائهم بنوع خاص، وظن هؤلاء ـ إلا من رحم ربّك ـ أن الأمة خلقت لهم، وأن لهم أن يفعلوا بها ما يشاؤون، وقد رسخ فيهم هذا الفكر حتى إذا حاول محاول أن يقيمهم على الجادة بطشوا به عبرة لغيره. وجاء العلماء المتزلفون لأولئك الأمراء المتقلبون في نعمائهم، الضاربون بالملاعق في حلوائهم، وأفتوا لهم بجواز قتل ذلك الناصح بحجة أنه شق عصا الطاعة، وخرج عن الجماعة.

ولقد عهد الإسلام إلى العلماء بتقويم أود الأمراء. وكانوا في الدول الإسلامية الفاضلة بمثابة المجالس النيابية في هذا العصر، يسيطرون على الأمة، ويسددون خطوات الملك، ويرفعون أصواتهم عند طغيان الدولة، ويهيبون

بالخليفة من يعيده إلى الصواب، وهكذا كانت تستقيم الأمور لأن أكثر أولئك العلماء كانوا متحققين بالزهد، متحلين بالورع، متخلين عن حظوظ الدنيا، لا يهمهم أغضب الملك الظالم الجبار أم رضي. فكان الخلائف والملوك يرهبونهم، ويخشون مخالفتهم، لما يعلمون من انقياد العامة لهم، واعتقاد الأمة بهم، إلا أنه بمرور الأيام خلف من بعد هؤلاء خلف اتخذوا العلم مهنة للتعيش، وجعلوا الدين مصيدة للدنيا، فسوغوا للفاسقين من الأمراء أشنع موبقاتهم، وأباحوا لهم باسم الدين خرق حدود الدين، هذا والعامة المساكين مخدوعون بعظمة عمائم هؤلاء العلماء، وعلو مناصبهم، يظنون فتياهم صحيحة، وآراءهم موافقة للشريعة، والفساد بذلك يعظم، ومصالح الأمة تذهب، والإسلام يتقهقر، والعدو يعلو ويتنمر. وكل هذا إثمة رقاب هؤلاء العلماء[1].

---

(1) وفينا هذه المسألة حقها في المنار وأهمه مقالة في المجلد التاسع (ص 357) عنوانها (حال المسلمين في العالمين. ودعوة العلماء إلى نصيحة الأمراء والسلاطين) انحينا فيها باللائمة على علماء هذا العصر لتقصيرهم في نصيحة الملوك والأمراء، ويليها آثار عن السلف في ذلك نشرت في عدة أجزاء من هذا المجلد.

ومن أعظم عوامل تقهقر المسلمين الجبن والهلع، بعد أن كانوا أشهر الأمم في الشجاعة واحتقار الموت، يقوم واحدهم للعشرة وربما للمائة من غيرهم. فالآن أصبحوا ـ إلا بعض قبائل منهم ـ يهابون الموت الذي لا يجتمع خوفه مع الإسلام في قلب واحد. ومن الغريب أن الإفرنج المعتدين لا يهابون الموت في اعتدائهم، هيبة المسلمين إياه في دفاعهم. وأن المسلمين يرون الغايات البعيدة التي يبلغها الإفرنج في استحقار الحياة والتهافت على الهلكة في سبيل قوميتهم ووطنهم، ولا تأخذهم من ذلك الغيرة ولا يقولون نحن أولى من هؤلاء باستحقار الحياة، وقد قال الله تعالى ﴿**ولا تهنوا في ابتغاء القوم، أن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون، وترجون من الله مالا يرجون**﴾.

وقد انضم إلى الجبن والهلع اللذين أصابا المسلين اليأس والقنوط من رحمة الله، فمنهم فئات قد وقر في أنفسهم أن الإفرنج هم الأعلون على كل حال، وأنه لا سبيل لمغالبتهم بوجه من الوجوه، وأن كل مقاومة عبث، وأن كل مناهضة خرق في الرأي. ولم يزل هذا التهيب يزداد ويتخمر في صدور المسلمين أمام الأوربيين إلى أن صار هؤلاء ينصرون بالرعب، وصار الأقل منهم يقومون للأكثر من المسلمين. وهذا بعكس ما كان في العصر الأول.

يـرى الجبنـاء أن الجـبن حـزم

وتلـك خديعـة الطبـع اللئـيم

نسي المسلمون الأيام السالفة التي كان فيها العشرون مسلماً لا غير يأتون من (برشلونة) إلى (فراكسيمه) من سواحل فرنسة ويستولون على جبل هناك ويبنون به حصناً ويتزايد عددهم حتى يصيروا مائة رجل فيؤسسون هناك إمارة تعصف ريحها بجنوبي فرنسة وشمالي إيطالية، وتهادنها ملوك تلك النواحي وتخطب ولاءها، وتستولي على رؤوس جبال الألب، وعلى المعابر التي عليها الطرق الشهيرة بين فرنسة وإيطالية، وتضطر جميع قوافل الإفرنج أن تؤدي للعرب المكوس لأجل المرور، ثم تتقدم هذه الدولة العربية الصغيرة في بلاد (البيامون) مسافات بعيدة إلى أن تبلغ سويسرة وبحيرة (كونستانزة) في قلب أوروبة، وتضم القسم العالي من سويسرة إلى أملاكها، وتبقى خمساً وتسعين سنة مستولية على هذه الديار إلى أن تتألب الأمم الإفرنجية عليها، ولا تزال تناجزها إلى أن استأصلتها، وكانت تلك العصابة العربية يوم انقرضت لا تزيد على ألف وخمسمائة رجل (وقد نشرنا تفصيل خبرها في المجلد 24 من المنار).

شبهات الجهلاء الجبناء وردها

من السخفاء من يقول: نعم قد كان ذلك لكن قبل أن يخترع الإفرنج آلات القتال الحديثة، وقبل المدافع والدبابات والطيارات، وقبل أن يصير الإفرنج إلى ما صاروا إليه من القوة المبنية على العلم. وهذا القول هو منتهى السخف والسفه والحماقة، فإن لكل عصر علماً وصناعة ومدنية تشاكله، وهي فيه كما هي العلوم والصناعات والمدنية الحاضرة في هذا العصر. وأمور الخلق كلها نسبية. ولقد كانت في العصر الذي نتكلم عنه آلات قتال ومنجنيقات ودبابات ونيران مركبة تركيباً مجهولاً اليوم، وكانت في ذلك الوقت كما هي المدافع والرشاشات وقنابل الديناميت وما أشبه ذلك في هذه الأيام. على أنه ليست الدبابات والطيارات والرشاشات هي التي تبعث العزائم، وتوقد نيران

الحمية في صدور البشر، بل الحمية والعزيمة والنجدة هي التي تأتي بالطيارات والدبابات والقنابر، وما هذه إلا مواد صماء لا فرق بينها وبين أي حجر، فالمادة لا تقدر أن تعمل شيئاً من نفسها، وإنما الذي يعمل هو الروح فإذا هبت أرواح البشر وتحركت عزائمهم فعند ذلك تجد الدبابات والطيارات والرشاشات والغواصات، وكل أداة قتال ونزال على طرف الثما.

يقولون: إلا أن هذا ينبغي له العلم الحديث، وهذا العلم مفقود عند المسلمين، فلذلك أمكن الإفرنج ما لم يمكنهم.

(والجواب) أن العلم الحديث أيضاً يتوقف على الفكرة والعزيمة، ومتى وجدت هاتان وجد العلم الحديث ووجدت الصناعة الحديثة. أفلا ترى أن اليابان إلى حد سنة 1868 كانوا أمة كسائر الأمم الشرقية الباقية على حالتها القديمة، فلما أرادوا اللحاق بالأمم العزيزة تعلموا علوم الأوربيين، وصنعوا صناعاتهم، واتسق لهم ذلك في خمسين سنة. وكل أمة من أمم الإسلام تريد أن تنهض وتلحق بالأمم العزيزة يمكنها ذلك وتبقى مسلمة ومتمسكة بدينها، كما أن اليابانيين تعلموا علوم الأوربيين كلها وضارعوهم

ولم يقصّروا في شيء عنهم، ولبثوا يابانيين ولبثوا متمسكين بدينهم وأوضاعهم. وأيضاً فمتى أرادت أمة مسلمة أدوات أو أسلحة حديثة ولم تجدها؟ إن ملاك الأمر هو الإرادة فمتى وجدت الإرادة وجد الشيء المراد.

فلو أن أمة من أمم الإسلام أرادت أن تتسلح لوجدت السلاح الحديث اللازم بأنواعه وأشكاله من ثاني يوم. ولكن اقتناء السلاح ينبغي له سخاء بالأموال، وهم لا يريدون أن يبذلوا، ولا أن يقتدوا بالإفرنج واليابان في البذل، بل يريدون النصرة بدون سلاح وعتاد، أو السلاح والعتاد بدون بذل أموال، وإذا تغلب العدو عليهم من بعد ذلك صاحوا قائلين: أين المواعيد التي وعدنا إياها القرآن في قوله ﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾ كأن القرآن ضمن للمؤمنين النصر بدون عمل وبدون كسب وبدون جهاد بالأموال والأنفس، بل بمجرد قولنا إننا مسلمون، أو بمجرد الدعاء والتسبيح؟ وأغرب من ذلك بمجرد الاستغاثة بالأولياء، فأصبح الكثير من المسلمين وهم عزل من السلاح الحديث وغير مجهزين بالعلم اللازم لاستعماله لا يقومون للقليل من الإفرنج المسلحين المجهزين، وصاروا إذا التقى

الجمعان تدور الدائرة في أغلب الأحيان على المسلمين. فتوالى هذا الأمر عليهم مدة طويلة إلى أن فقدوا كل ثقة بنفوسهم، واستولى عليهم القنوط، ودب فيهم الرعب، وألقوا بأنفسهم إلى العدو، وبعد أن كانوا مسلمين، صاروا مستسلمين، وقد ذهلوا عن قوله تعالى: ﴿**ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين أن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس**﴾ ونسوا أنه لا يجوز أن يتطرق اليأس إلى قلب أحد لا عقلاً ولا شرعاً، ولاسيما المسلم الذي يخبره دينه بأن اليأس هو الكفر بعينه. وغفلوا عن قوله تعالى في سلفهم ﴿**الذين قال لهم الناس أن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء**﴾ الآيات.

فتجدهم إذا استنهضتهم لمعاونة قوم منهم يقاتلون دولة أجنبية تريد لتمحوهم كان أول جواب لهم: أية فائدة من بذل أموالنا في هذا السبيل وتلك الدولة غالبة لا محالة. ولو تأملوا لوجدوا أن الاستسلام لا يزيدهم إلا ويلاً، ولا يزيد العدو إلا استبداداً وجبروتاً، سنة الله في خلقه. ولو فكروا قليلاً لرأوا

أن هذا الشح بالمال على إخوانهم الذين في مواطن الجهاد لم يكن توفيراً وإنما كان هو الفقر بعينه. لأن الأمة المستضعفة لا تعود حرة في تجارتها واقتصادياتها، بل يمتص العدو الغالب عليها كل ما فيه علالة رطوبة في أرضها، ولا يترك للأمة المستضعفة إلا عظاماً يتمششونها، من قبيل "قوت لا يموت" وكثيراً ما تحصل مساغب ويموتون جوعاً كما يقع كثيراً في جزائر الغرب والهند وغيرهما، ترى المجاعات واقعة في الهند ولا يموت منها ولا إنكليزي، وتراها تشتد في الجزائر ولا يموت بها إلا المسلم. وما السبب في ذلك إلا أن الأجانب قد استأثروا بخيرات البلاد ولم يتركوا للمسلمين إلا الفقر. فقام المسلمون اليوم يعتذرون عن عدم بذل الأموال لمساعدة إخوانهم بعدم وجودها، وهذا صحيح إلى حد محدود، وذلك أنهم بخلوا بها في الأول فجنوا من بخلهم على الجهاد والخنوع أولاً، والفقر والجوع ثانياً. فإن من سنن الله في أرضه أن الذل يردفه الفقر، وأن العز يردفه الثراء، والمثل العربي يقول: من عزيز. والشاعر العربي الأيادي يقول:

لا تــذخروا المــال للأعــداء إنهــمُ

إن يظهــروا يأخــذوكم والــتلادَ معــا

هيهــات لا خــير في مــال وفي نعــم

قــد احتفظــتم بهــا إن أنفكــم جُــدعا

والمتنبي يقول:

فــلا مجــد في الــدنيا لمــن قــل مالــه

ولا مــال في الــدنيا لمــن قــل مجــده

فالمسلمون عز عليهم المال ففقدوه، وعزت عليهم الحياة ففقدوها، وأبى الله إلا تصديق كلام النبي الموحى إليه حيث يقول: يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على القصاع قالوا: أو من قلة فينا يومئذ يا رسول الله؟ قال: لا ولكنكم غثاء كغثاء السيل يجعل الوهن في قلوبكم من قلوب أعدائكم من حبكم الدنيا وكراهيتكم الموت".

هذا الحديث كان رواه لي الشيخ الكتاني الفاسي رحمه الله يوم لقيته في المدينة المنورة منذ ثماني عشرة سنة،

ثم قرأته في الكتب واستشهدت به في مقدمة حاضر العالم الإسلامي، وألفاظه تختلف في رواية عن رواية. فالأستاذ صاحب المنار أمتع الله بطول حياته هو الأدرى بأصح رواياته[1] ومعناه ظاهر وهو: أن المسلمين يأتي عليهم يوم

---

(1) الحديث رواه أبو داود في سننه والبيهقي في دلائل النبوة عن ثوبان مرفوعاً بلفظ "يوشك أن تداعى عليكم الأمم تداعى الأكلة إلى قصتها" فقال قائل ومن قلة نحن يومئذ قال ﷺ "بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل، وسينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن" ـ قال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال "حب الدنيا وكراهية الموت" قوله ﷺ: "تداعى" أصله تتداعى أي تجتمع ويدعو بعضها بعضاً لسلب ملككم كما تتداعى الأكلة وهي جمع آكل كالفعلة جمع فاعل إلى قصعة الطعام، والغثاء بالضم ما يحمله السيل ويلقيه من الزبد والعيدان ونحوها ويضرب مثلاً لما لا قيمة له ولا فائدة، والوهن بالنون الضعف، وإنما سأله السائل عن سببه فأجابه ﷺ بأن سببه حب الحياة الدنيا ولذاتها الخسيسة وإيثارها على الجهاد في الدفاع عن الحقيقة وإعلاء كلمة الله، وكراهية الموت ولو في سبيل الحق حرصاً على هذه الحياة الخسيسة. وقد أوردت هذا الحديث في تفسير وقوله تعالى﴿ 6: 65 قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض﴾ الآية وأوردت قبله حديث ثوبان الآخر الذي رواه مسلم في صحيحه قال رسول الله ﷺ "إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها، وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض، وأني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة عامة، وأن لا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم (أي ملكهم وسلطانهم ومستقر قوتهم) وإن ربي قال لي: يا محمد إذا قضيت قضاء فإنه لا =

يصيرون فيه مأكلة وتمتد إليهم الأيدي من كل جهة، فهذا العصر الذي نحن فيه هو ذلك اليوم، وأن المسلمين لا يكون عيبهم يومئذ من قلة العدد، بل يكون عددهم كثيراً وإنما لا تغنيهم كثرتهم شيئاً، لأن الكثرة بنفسها لا تفيد إن لم تقترن بجودة النوع، والكمية لا تغني عن الكيفية، وعلة العلل في ضعف المسلمين ذلك اليوم هو الجبن والبخل، صريح ذلك في قوله ﷺ "من حبكم الدنيا وكراهيتكم الموت".

ومن المعلوم أن الإفراط في حب الدنيا يحرم الإنسان التمتع بها، وأن الغلو في المحافظة على الحياة تكون عاقبه زيادة التعرض للهلاك، هذه من سنن الله في خلقه أو من النواميس الطبيعية كما يقال في هذا العصر.

يرد، وأني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة (أي قحط) وأن لا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من بأقطارها ـ أو قال من بين أقطارها ـ حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبي بعضهم بعضاً" ورواه أحمد وأصحاب السنن إلا النسائي بزيادة على رواية مسلم هذه، وكلا الحديثين من أعلام النبوة التي ظهر بها صدقه ﷺ بعد قرون من وفاته ورفع روحه إلى الرفيق الأعلى، فما ذهب شيء من ملك المسلمين إلى أيدي الأجانب إلا بخذلان بعضهم لبعض ومساعدتهم للأجانب على أنفسهم، وفي هذه الرسالة للأمير شكيب بعض الشواهد من مسلمي هذا العصر على ذلك. وراجع الموضوع بتفصيله في تفسير الآية المشار إليها من ص 490 ـ 501 ج7 تفسير.

فالقرآن يأمر المسلم بأن يحتقر الحياة والمال وكل عزيز في سبيل الله ويأمر المسلم أن يثبت ولا ييأس، وأن يصبر ولا يتزلزل مهما أصيب.

وتراه يقول: (وكأي من نبي قاتل معه رِبيُّون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين).

هكذا يريد الله ليكون المسلمون فإن لم يكونوا هكذا بصريح نص القرآن، فكيف يستنجزون الله عداته بالنصر والتمكين، والسعادة والتأمين؟

ضياع الإسلام بين الجامدين والجاحدين

ومن أكبر عوامل انحطاط المسلمين الجمود على القديم، فكما أن آفة الإسلام هي الفئة التي تريد أن تلغي كل شيء قديم، بدون نظر فيما هو ضار منه أو نافع، كذلك آفة الإسلام هي الفئة الجامدة التي لا تريد أن تغير شيئاً، ولا ترضى بإدخال أقل تعديل على أصول التعليم الإسلامي ظناً منهم بأن الافتداء بالكفار كفر، وأن نظام التعليم الحديث من وضع الكفار.

فقد أضاع الإسلام جاحد وجامد.

أما الجاحد فهو الذي يأبى إلا أن يفرنج المسلمين وسائر الشرقيين، ويخرجهم عن جميع مقوماتهم ومشخصاتهم، ويحملهم على إنكار ماضيهم، ويجعلهم أشبه بالجزء

الكيماوي الذي يدخل في تركيب جسم آخر كان بعيداً فيذوب فيه ويفقد هويته. وهذا الميل في النفس إلى إنكار الإنسان لماضيه واعترافه بأن آباءه كانوا سافلين، وأنه هو يريد أن يبرأ منهم، لا يصدر إلا عن الفسل الخسيس، الوضيع النفس، أو عن الذي يشعر أنه في وسط قومه دنيء الأصل، فيسعى هو في إنكار أصل أمته بأسرها لأنه يعلم نفسه منها بمكان خسيس ليس له نصيب من تلك الأصالة، وهو مخالف لسنن الكون الطبيعية التي جعلت في كل أمة ميلاً طبيعياً للاحتفاظ بمقوماتها ومشخصاتها من لغة وعقيدة وعادة وطعام وشراب وسكنى وغير ذلك.

محافظة الشعوب الإفرنجية على قومياتها

فلننظر إلى أوربة ـ لأنها هي اليوم المثل الأعلى في ذلك ـ فنجد كل أمة فيها تأبى أن تندمج في أمة أخرى. فالإنكليز يريدون أن يبقوا إنكليزاً، والإفرنسيس يريدون أن يبقوا إفرنسيساً، والألمان لا يريدون أن يكونوا إلا ألماناً، والطليان لا يرضون أن يكونوا إلا طلياناً، والروس قصارى همهم أن يكونوا روساً، وهلم جرا.

ومما يزيد هذا المثال تأثيراً في النفس أن الأيرلنديين مثلاً أمة صغيرة مجاورة للإنكليز وقد بذل هؤلاء جميع ما يتصوره العقل من الجمود ليدمجهم في سوادهم مدة تزيد على سبعمائة سنة، فأبوا أن يصيروا إنكليزاً ولبثوا أيرلنديين بلسانهم وعقيدتهم وأذواقهم وعاداتهم.

وفي فرنسة نفسها تأبى أمة "البريتون" إلا أن تحافظ على أصلها. وفي جنوبي فرنسة جيل يقال لهم "الباشنس" احتفظوا بقوميتهم تجاه القوط، ثم تجاه العرب، ثم تجاه الأسبان، ثم تجاه الفرنسيس. وجميعهم مليون نسمة. وهم لا يزالون على لغتهم وزيهم وعاداتهم وجميع أوضاعهم.

والفلمنك يأبون أن يجعلوا اللغة الإفرنسية لغتهم، والثقافة الإفرنسية ثقافتهم، ولم يزالوا يصيحون في بلجيكا حتى اضطرت دولة بلجيكا إلى الاعتراف بلغتهم لغة رسمية.

وفي سويسرة ثلاثة أقسام: القسم الألماني وهو مليونان وثمانمائة ألف، والقسم المتكلم بالإفرنسية وهو ثمانمائة ألف، والقسم المتكلم بالطليانية وهو أكثر قليلاً من مائتي ألف، وكل قسم منها محافظ على لغته وقوانينه ومنازعه مع أنهم كلهم متحدون في مصالحهم السياسية ويعيشون في مملكة واحدة.

وأن الدانمرك وبلاد الاسكندیناف وهولاندا فروع من الشجرة الألمانية لا مراء في ذلك، لكنهم لا يريدون الاندماج في الألمان ولا العدول عن قومياتهم وبقى "التشيك" مائتين من

السنين تحت حكم الألمان وبقوا تشيكا، واستأنفوا بعد الحرب العامة استقلالهم السياسي، بعد أن حفظوا لسانهم واستقلالهم الجنسي مدة خمسة قرون.

وقد هذب الألمان أمة المجر وعلموهم ورقوهم ولكنهم لم يتمكنوا من إدماجهم في الألمانية فتجدهم أحرص الأمم على لغتهم المغولية الأصل وعلى قوميتهم المجرية.

ولبثت الروسية العظيمة من مائتين إلى ثلاثمائة سنة تحاول إدخال بولونية في الجنس الروسي وحمل البولونيين على نسيان قوميتهم الخاصة بحجة أن العرق السلافي يجمع بين الولونيين والروس، ففشل جميع مساعيها في اندماج البولونيين فيها، وعاد هؤلاء بعد الحرب العامة أمة مستقلة في كل شيء. وذلك لأنهم لم يتخلوا طرفة عين عن قوميتهم.

وليس من العجب أن لا تريد أمة عددها 30 مليوناً الاندماج في غيرها. ولكن الإستونيين وهم مليونان فقط انفصلوا عن الروسية ولم يقبلوا الاندماج فيها وأحيوا استقلالهم ولسانهم المغولي الأصل وجعلوا له حروفاً هجائية. ومثلهم أهالي فنلاندة المنفصلون عن الروسية أيضاً. وقد

خابت مساعي الروس في ادماج اللتوانيين من هذه الأمة البلطيكية في الجنس الروسي، وانتقضوا بعد الحرب العامة أمة مستقلة كما كانوا مستقلين قومياً، وجميعهم أربعة ملايين. وأقل منهم جيرانهم اللتوانيين الذين هم مليونان لا غير، ومع هذا قد انفصلوا بعد الحرب وأسسوا جمهورية كسائر الجمهوريات البلطيكية لأنهم من الأصل لبثوا محافظين على لغتهم وجنسهم.

وقد عجز الروس من جهة كما عجز الألمان من جهة أخرى عن إدخال هذه الأقوام في تراكيبهم القومية العظيمة لأن كل شعب مهما كان صغيراً لا يرضى بإنكار أصله ولا بالنزول عن استقلاله الجنسي.

وقد حفظ الكرواتيون استقلالهم الجنسي مع إحاطة أمتين كبيرتين بهم هما اللاتين والجرمان.

وحفظ الصربيون استقلالهم الجنسي مع سيادة الترك عليهم مدة قرون.

ولم يزل الأرناؤوط أرناؤوطاً منذ عهد لا يعرف بدؤه وهم بين أمتين كبيرتين اليونان والصقالبة أي السلاف.

وكذلك البلغار أبوا إلا أن يبقوا بلغاراً فيما بين الروم والسلاف واللاتين. ثم جاءهم الترك فتعلموا التركية لكنهم بقوا بلغاراً.

ولا أريد أن أخرج في الاستشهاد عن أوربة لأني إن خرجت عن أوربة قالت تلك الفئة الجاحدة: نحن لا نريد أن نجعل قدوة لنا أممتاً متأخرة مثلنا.

فالأمم التي استشهدنا الآن بها كلها أوربية، وكلها متعلمة راقية، وكلها ذوات بلدان ممدنة منظمة، وكلها عندها الجامعات والأكاديميات والجمعيات العلمية والجيوش والأساطيل إلخ...

العبرة للعرب وسائر المسلمين برقى اليابانيين

ولكني أخرج من أوروبا إلى اليابان فقط لأن رقي اليابان يضارع الرقي الأوربي وقد تم لليابانيين كما تم رقي أوروبا للأوربيين أي في ضمن دائرة قوميتهم ولسانهم وآدابهم وحريتهم ودينهم وشعائرهم ومشاعرهم وكل شيء لهم.

فأنقل إلى القراء العرب فقرة من رسالة طويلة جاءت من مراسل أوربي سائح في اليابان وظهرت في جريدة "جورنال دو جنيف" بتاريخ 20 أكتوبر فإنه يقول:

"إن الياباني يحب الفن قبل كل شيء، وإن رأيته ساعياً في كسب المال فلأجل أن يلذذ بالمال أهواءه المنصرفة إلى الحسن والجمال. وقد انتقش في صفحة نفسه الشعور القومي الشديد عدا الميل إلى الجمال، لأنه يفتخر يكون اليابان في مدة ستين سنة فقط صارت من طور أمة من

القرون الوسطى إقطاعية الحكم إلى أمة عظيمة من أعظم الأمم، ومما لا ريب فيه أن الديانة اليابانية هي ذات دور عظيم في سياسة اليابان (ليتأمل القارئ) وهي في الحقيقة فلسفة مبنية على الاعتراف بكل ما تركه القدماء لسلائلهم. فالياباني العصري قد ائتلف مع جميع احتياجات الحياة العصرية، لكن مع حفظ الميل الدائم إلى الرجوع إلى ماضيه، ومع التمسك الشديد بقوميته، غير مجيب نداء التفرنج (وفي الأصل التغرب Accidentalisme) الذي لا يريد الياباني أن يأخذ منه إلا ما هو ضروري له لأجل مصارعة سائر الأمم بنجاح، ولا شك بأنّ هذا مثال فريد في تاريخ أمم الشرق الأقصى".

ثم يقول:

"كان اليابانيون يكرهون الأسفار إلى البلدان البعيدة، ويحظرون دخول الأجانب في بلادهم، ولكن هذا المنع قد ارتفع بعد النهضة العصرية، وتلافت اليابان ما فات بشكل مدهش. والنتائج هي أمامنا، إلا أن الماضي لا يزال عند اليابانيين مقدساً معظماً في جميع طبقاتهم لأنه في هذا الماضي المقدس يجد اليابانيون جميع شعورهم بقيمتهم

الحاضرة، فتراهم يكافحون بوسائل المدنية الحديثة التامة التي لا سبيل إلى الحياة بدونها في أيامنا هذه، لكن ينبذون كل "تغرب" بمجرد ما يجدون أنفسهم في غنى عنه، ويعودون مع اللذة إلى شعورهم القومي الخالص الذي به يعتقدون أنهم الأعلون.

"وهناك هياكل "شنيتو" ومعابد "زن" والهياكل البوذية وهي مكرمة معظمة مخدومة بأشد ما يمكن من الحماسة الدينية والإيمان الثابت كما كانت منذ قرون. والحق أن هذا الاحترام الشديد الذي يشعر به اليابانيون لقديمهم ولمعبودهم هو الذي قام عندهم حصناً منيعاً دون المبادئ الشعوبية، والأفكار الشيوعية المضرة.

ومنذ بضع سنوات ظهر في فرنسة تأليف جديد عن اليابان للمركيز "لامازلليير" La Mazelière قد أطنبت الجرائد في وصفه ونشرت عنه جريدة "الديبا" مقالاً زناناً، فنحن نوصي القراء الذين يهمهم أن يعرفوا كيفية ارتقاء اليابان ـ وهو موضوع في غاية الجلالة لما فيه من الاستنتاج لسائر بلاد الشرق ـ بمطالعة هذا الكتاب الذي لا يمكن أن ينسب إلى مؤلفه التعصب لليابان، على أنني رأيته في

الجملة مطابقاً لتواريخ ألفها علماء يابانيون متخصصون في التاريخ. وهذه التواريخ مترجمة من اليابانية إلى الإفرنسية. ولا بد لي في هذه العجالة من نقل بعض فقر من تاريخ لامازلليير المذكور، قال في أثناء الكلام على تمدن اليابان العصري وخروج هذه الأمة من عزلتها القديمة ما يلي:

"فبدأت اليابان تستعير من أوربة وأمريكا قسماً من مدنيتهما المادية، ومن نظامهما العسكري، ومن مباحث تعليمهما العام، ومن سياستهما المالية، فكان المجددون يجتهدون في أن يقتبسوا من كل شعب ما يرونه الأحسن عنده، فكان ذلك مشروع تجديد وهدم وإعادة بناء، وظهرت آثار ذلك في جميع مناحي الحياة اليابانية".

ثم تكلم عن الحرب اليابانية الصينية، وانتهى إلى قوله الذي نترجمه ترجمة حرفية:

"إن ظفر اليابان بالصين لم يثبت علو الأفكار والمبادئ العلمية التي أخذتها اليابان عن الغرب وكفى، بل أثبت أمراً آخر وهو أن شعباً أسيوياً بمجرد إرادته وعزيمته عرف أن يختار ما رآه الأصلح له من مدنية الغرب (تأمل جيداً) مع الاحتفاظ باستقلاله وقوميته وعقليته وآدابه وثقافته".

وقبلاً كنت نشرت في الجرائد ـ وما نشرته لم يكن إلا نقطة من غدير ـ خلاصة الحفلات التي أقامها اليابانيون لتتويج عاهلهم منذ سنتين وكيف استمرت مراسم هذا الاحتفال مدة شهر، وكانت بأجمعها دينية، وكيف أنّ الميكادو هو كاهن الأمة الأعظم، وكيف أنه من سلالة الآلهة "الشمس" وكيف اغتسل في الحمام المقدس المحفوظ من ألفي سنة، وكيف أكل مع الآلهة: الأرز ا لمقدس الذي زرعته الدولة تحت إشراف الكهنة حتى يكون تام القدسية لا شبهة فيه، وكيف كان ثمة في الحفل ستمائة ألف ياباني وكلهم يهتفون: ليحيى الميكادو عشرة آلاف سنة إلى غير ذلك.

لماذا لا نسمي اليابان وأوربة رجعية بتدينهما

فلماذا يا ليت شعري تتقدم اليابان هذا التقدم السريع المدهش وتصير هذه الأمة العصرية يضرب برقيها المثل وهي تضرب بإعراقها إلى عقائد وعادات ومنازع مضى عليها ألفا سنة، ويكون إمبراطورها هو كاهنها الأعظم، ولا يقال عنها "رجعية" و"مرتجعة" و"ارتجاعية"؟ (فإن كانت اليابان رجعية فمرحى بالرجعية).

ولماذا كان ملك إنكلتره وإمبراطور الهند السيد على 400 مليون آدمي في الأرض من البيض والسمر والصفر والحمر والسود هو رئيس الكنيسة الأنكليكانية ومجالسه النيابية تبحث في جلسات عديدة في قضية الخبز والخمر هل يستحيلان بمجرد تقديس القسيس إلى جسد المسيح ودمه فعلاً بدون أدنى شك أم ذلك من قبيل الرمز

والتمثيل؟ ولا يقال عنه إنه "رجعي" ولا يقال عن دولته العظمى إنها "متأخرة" و"متقهقرة" فإن كانت إنكلترا بعد هذا متقهقرة فيا حبذا "التقهقر".

ولماذا كانت القارة الأوروبية كلها مسيحية مفتخرة بمسيحيتها تتباهى بذلك في كل فرصة متحدة في هذا الأمر على ما بينها من عداوات ومنافسات، ولا ننبزها بقولنا "رجعية" و"ارتجاعية" والحال أن الديانة التي تدين بها أوربة عمرها 19 قرناً. وهذا عهد يصح أن يقال عنه قديم "وقديم جداً" وهؤلاء اليهود، مهما ننكر عليهم فلا نقدر أن ننكر عليهم المقدرة والذكاء والحس العملي والجد الهائل ـ لا يزالون يفخرون بتوراة وجدت منذ آلاف السنين ويشاركهم فيها المسيحيون؟

ولماذا نرى أعظم شباب اليهود رقياً عصرياً يجاهدون في إحياء اللغة العبرية التي لا يعرفه تاريخها لتوغلها في القدم. ولا يقال عنهم إنهم "رجعيون" و"متأخرون" و"قهقريون"؟

"وقد نشر وايزمان رئيس الجمعية الصهيونية حديثاً في جريدة "الماتن" كان من أهم ما فخر به وأدلى به كمأثرة

ينبغي أن تذكرها لهم الإنسانية هو "أن فلسطين الحديثة تتكلم اليوم بأجمعها بلغة الأنبياء" يريد بفلسطين الحديثة فلسطين اليهودية التي قد نشر الصهيونيون فيها اللغة العبرانية القديمة وأجبروا نشأهم الجديد على أن يتحدثوا بها لتكون اللغة الجامعة لليهود. ومن الذي فعل هذا؟ الجواب: هم اليهود العصريون الأشد أخذاً بمبادئ العلم الحديث والحضارة العصرية. و(وما يذكر إلا أولو الألباب) وماذا عساني أحصي عن هذه الأماثيل والعبر في رسالة وجيزة كهذه؟

كل قوم يعتصمون بدينهم ومقومات ملتهم ومشخصات قومهم الموروثتين ولا ينبزون بهذه الألقاب!! إلا المسلمين.

فإنه إذا دعاهم داع إلى الاستمساك بقرآنهم وعقيدتهم ومقوماتهم ومشخصاتهم وباللسان العربي وآدابه والحياة الشرقية ومناحيها قامت قيامة الذين في قلوبهم مرض.. وصاحوا: لتسقط الرجعية. وقالوا كيف تريدون الرقي وأنتم متمسكون بأوضاع بالية باقية من القرون الوسطى ونحن في عصر جديد؟

جميع هؤلاء الخلائق تعلموا وتقدموا وترقوا وعلوا وطاروا في السماء والمسيحي منهم باق على إنجيله وتقاليده الكنسية، واليهود باق على توراته وتلموده، والياباني باق على وثنه وأرزه المقدس، وكل حزب منهم فرح بما لديه. وهذا المسلم المسكين يستحيل أن يترقى إلا إذا رمى قرآنه وعقيدته ومآخذه ومتاركه ومنازعه ومشاربه ولباسه وفراشه وطعامه وشرابه وأدبه وطربه وغير ذلك وانفصل من كل تاريخه، فإن لم يفعل ذلك فلا حظ له من الرقي!

فهذا ما كان من ضرر الجاحد الذي يقصد السوء بالإسلام وبالشرق أجمع ويخدع السذج بأقاويله.

غوائل الجامدين في الإسلام والمسلمين

وبقي علينا المسلم الجامد، الذي ليس بأخف ضرراً من الجاحد، وإن كان لا يشرك في الخبث وسوء النية، وإنما يعمل ما يعمله عن جهل وتعصب.

فالجامد هو الذي مهند لأعداء المدنية الإسلامية الطريق لمحاربة هذه المدنية محتجين بأن التأخر الذي عليه العالم الإسلامي إنما هو ثمرة تعاليمه.

والجامد هو سبب الفقر الذي ابتلي به المسلمون لأنه جعل الإسلام دين آخرة فقط. والحال أن الإسلام هو دين دنيا وآخرة. وأن هذه مزية له على سائر الأديان. فلا حصر كسب الإنسان فيما يعود للحياة التي وراء هذه كما هي ديانات أهل الهند والصين، ولا زهده في مال الدنيا وملكها ومجدها كتعاليم الإنجيل، ولا حصر سعيه في أمور هذه المعيشة الدنيوية كما هي مدنية أوربة الحاضرة.

والجامد هو الذي شهر الحرب على العلوم الطبيعية والرياضية والفلسفية وفنونها وصناعاتها بحجة أنها من علوم الكفار. فحرم الإسلام ثمرات هذه العلوم، وأورث أبناءه الفقر الذي هم فيه وقص أجنحتهم. فإن العلوم الطبيعية هي العلوم الباحثة في الأرض. والأرض لا تخرج أفلاذها إلا لمن يبحث فيها[1] فإن كنا طول العمر لا نتكلم إلا فيما هو عائد للآخرة قالت لنا الأرض: اذهبوا توّاً إلى الآخرة فليس لكم نصب مني. ثم أننا بحصر كل مجهوداتنا في هذه العلوم والمحاضرات الآخروية جعلنا أنفسنا بمركز ضعيف بإزاء سائر الأمم التي توجهت إلى الأرض، وهؤلاء لم يزالوا يعلون في الأرض ونحن ننحط في الأرض، إلى أن صار الأمر كله في يدهم، وصاروا يقدرون أن يأفكونا عن نفس ديننا، فضلاً عن أن يملكوا علينا دنيانا. وليس هذا هو الذي يريده الله بنا وهو الذي قال ﴿**وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض**﴾ وقال ﴿**هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً**﴾ وقال ﴿**قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق؟ هل هي**

---

[1] كان جدي الأدنى رحمه الله تعالى يقول: إن جار عليك الزمان فعليك تجور على الأرض. أي تلح وتجتهد في استخراج خيراتها.

للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة﴾ وقال فيما حكاه وأقرّه ﴿**ولا تنس نصيبك من الدنيا**﴾ وعلمنا أن ندعوه بقوله ﴿**ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة**﴾ إلخ...

والمسلم الجامد لا يدري أنه بهذا المشرب يسعى في بوار ملته وحطها عن درجة الأمم الأخرى، ولا يتنبه لشيء من المصائب التي جرها على قومه أهمالهم للعلوم الكونية حتى أصبحوا بهذا الفقر الذي هم فيه، وصاروا عيالاً على أعدائهم الذين لا يرقبون فيهم إلاً ولا ذمة، فهو إذا نظر إلى هذه الحالة عللها بالقضاء والقدر بادئ الرأي، وهذا شأن جميع الكسالى في الدنيا يحيلون على الأقدار.

هذا الخلق هو الذي حبب الكسل إلى كثير من المسلمين فنجمت فيهم فئة يلقبون "بالدراويش" ليس لهم شغل ولا عمل، وليسوا في الواقع إلا أعضاء أشلاء في جسم المجتمع الإسلامي.

وهذا الخلق بعينه هو الذي جعل الإفرنج يقولون إن الإسلام جبري لا يأمر بالعمل، لأن ما هو كائن هو كائن، عمل المخلوق أم لم يعمل.

آيات العمل المبطلة لتفسير القدر بالجبر والكسل

ولا شيء أدل على فساد هذا الزعم الإفرنجي من القرآن الملآن بالحث على العمل وباستنهاض الهمم، وابتعاث العزائم، ونوط الثواب والعقاب والفوز والفشل بالعمل الذي يعمله المكلف. قال الله تعالى: ﴿**وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله**﴾ وقال تعالى: ﴿**وإن جادلوك فقل: لي عملي ولكم عملكم**﴾ وقال تعالى: ﴿**وسيرى الله عملكم**﴾ وقال تعالى: ﴿**ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم**﴾ وقال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم**﴾ وقال تعالى: ﴿**والله معكم ولن يتركم أعمالكم**﴾ أي لا ينقصكم أعمالكم، وقال تعالى: ﴿**وإن**

تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً﴾ لا يلتكم من لاته يليته أو ولته يلته بمعنى نقصه، أي لا يبخسكم من أعمالكم شيئاً، وقال تعالى: **﴿ونوفّ إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون﴾** وقال عز وجل: **﴿وإن كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم﴾** وقال عز وجل: **﴿وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون﴾** وقال عز وجل: **﴿إني لا أضيع عمل عامل منكم﴾** وقال عز وجل: **﴿فنعم أجر العاملين﴾** وقال عز وجل: **﴿لمثل هذا فليعمل العاملون﴾** وقال عز وجل: **﴿إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾** وقال عز وجل: **﴿وتوفى كل نفس ما عملت﴾** وقال عز وجل: **﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾** وقال عز وجل: **﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً﴾** وقال عز وجل: **﴿ووفيت كل نفسه ما عملت وهو أعلم بما يفعلون﴾** وقال عز وجل: **﴿فأصابهم سيئات ما عملوا﴾** وقال تبارك وتعالى: **﴿ووجدوا ما عملوا حاضراً﴾** وقال تبارك وتعالى: **﴿ليذيقهم بعض الذي عملوا﴾** وقال تبارك وتعالى: **﴿إلا من آمن وعمل**

صالحاً فأولئك لهم جزاء الضعف ما عملوا﴾ وقال تعالى: ﴿**ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون**﴾ وقال تعالى: ﴿**فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره**﴾ وقال تعالى: ﴿**سيجزون ما كانوا يعملون**﴾ وقال تعالى: ﴿**جزاء بما كانوا يعملون**﴾ وقال تعالى: ﴿**ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون**﴾ إلى غير ذلك مما لا يكاد يحصى من الآيات التي امتلأ بها القرآن، ومنها ما هو نص في مسألتنا كقوله تعالى: ﴿**وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم**﴾ وقوله: ﴿**أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا؟ قل هو من عند أنفسكم**﴾.

إن صاحب السؤال يعلم وأكثر المسلمين لا يعلمون أن هذه الآية خاطب الله تعالى بها أكمل هذه الأمة إيماناً وإسلاماً وهم أصحاب رسول الله ﷺ إذ تعجبوا من ظهور المشركين عليهم في غزوة أحد فرد الله عليهم ببيان السبب وهو مخالفتهم أمره ﷺ للرماة الذين يحمون ظهور المقاتلة بألا يبرحوا أماكنهم سواء كان الغلب للمسلمين أو عليهم، فلما انهزم المشركون خالفوا الأمر لمشاركة المقاتلين في الغنيمة فكر عليهم المشركون حتى شج رأس النبي ﷺ إلخ...

وكلها ناطقة بأن الإسلام هو دين العمل لا دين الكسل، ولا هو دين الاتكال على القدر المجهول للبشر، كما يقول الدراويش البطالون: رزقنا على الله عملنا أم لم نعمل، أو كما يزين للناس بعض مؤلفي الإفرنجي من أن دين الإسلام دين جمود وتفويض وتسليم، وإن تأخر المسلمين إنما نشأ عن ذلك.

ولو أن في هذه الدعوى ذرة ما من الصحة لما نهض الصحابة أخبر الناس بالإسلام وفتحوا نصف كرة الأرض في خمسين سنة، ولكن التسليم الذي يتكلمون عنه ويهرفون فيه بما لا يعرفون إنما هو مقرون بالعمل وبالكدح والسعي، وإلاّ فلا يسمّى تسليماً بل يسمى جموداً، ويعد بطالة وهو مخالف للقرآن وللسنة. وأما إذا كان التسليم لله مقروناً بالعمل فإنه أنفع في الدنيا والآخرة، لأن إفراط المرء في الاعتماد على نفسه يورطه في البطر إذا نجح، وفي الجزع إذا فشل. والذي يريده الإسلام إنما هو أن يعقل الإنسان ويتوكل[1] وأن يدبر لنفسه بهداية عقله الذي جعل الله

---

(1) في قوله يعقل هنا تورية لاحتماله معنيين: ظاهرهما تحكيم إدراك العقل في الأمور مع التوكل على الله، و الثاني عقل الناقة المراد به الأخذ بالأسباب مع التوكل، إذ فيه إشارة إلى حديث الأعرابي المشهور بين الناس حتى صار مثلاً =

مرشداً، ويعلم مع ذلك أن ليس كل الأمر بيده، وأن من الأقدار ما لا تدركه الأفكار. وهذا صحيح، ولما ذكر النبي ﷺ القدر سأله بعض أصحابه ألا نتكل؟ فقال: ﴿**اعملوا فكل ميسر لما خلق له**﴾ رواه البخاري ومسلم.

ومن أغرب الغرائب أن هؤلاء الإفرنج الذين لا يفتئون ينعتون الإسلام بالجبرية وينسبون تأخر المسلمين إلى هذه العقيدة ـ التي كان يقول بها فئة قليلة من المسلمين ـ يذهلون عما هو وارد في الإنجيل من آيات القضاء والقدر التي تماثل ما في القرآن وقد تزيد عليه مثل قوله: لا تسقط شعرة من رؤوسكم إلا بإذن أبيكم السماوي. ومثل آي كثيرة لو أردت استقصاءها لطال المقال. ولا نجد في الإفرنج الذين هم مغرمون بالعمل وهائمون وراء الكسب ومنكرون للقضاء والقدر في الجملة، إلا من يقرأ الإنجيل الشريف ويقدسه ويعجب بمبادئه السامية كما نعجب بها نحن. فما بالهم نسوا ما فيه من آيات القضاء والقدر؟ وما بالهم لم يصفوا أقوال المسيح صلوات الله عليه بالجبرية؟ ﴿**يحلونه عاماً**

"أعقلها وتوكل" وي رواية "قيدها وتوكل" يعني ناقته فلم يأذن له ﷺ أن يتركها توكلاً.

ويحرمونه عاماً﴾ وحقيقة الأمر أن كل ما هو وارد في الإنجيل وكل ما هو وارد في القرآن من آيات القضاء والقدر إنما كان مقصوداً به سبق علم الله بكل ما يقع[1]. ولم يكن مقصوداً به نفي الاختيار والتزهيد في الكسب. وفي حديث الوزنتين والوزنات وغير ذلك من مواعظ الإنجيل الشريف ما يدل على ما عزاه القرآن إلى صحف إبراهيم وموسى أي وغيرهما من رسل الله ﴿**أن لا تزر وازرة وزر أخرى❖ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى❖ وأن سعيه سوف يرى❖ ثم يجزاه الجزاء الأوفى**﴾.

---

(1) هذا التفسير قول لبعض المتكلمين وهو أن تعلق علم الله بوجود المخلوقات في الأزل هو القضاء ووجودها على وفق العلم هو القدر، وقال بعضهم أنه تعلق الإرادة إلخ والتحقيق أن القدر والمقدار هو النظام الذي جرت به سنن الله تعالى في التكوين والتدبير والأسباب والمسببات كما يفهم من نصوص الآيات كقوله تعالى: ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما تنزله إلا بقدر معلوم﴾ وقوله: ﴿وأنزلنا من السماء ماء بقدر﴾ الآية ـ وقوله في نظام جعل النطفة في الرحم ﴿إلى قدرٍ معلوم﴾ ثم جئت على قدر يا موسى﴾ وقد حققنا المسألة في المنار والتفسير مراراً.

كون المسلمين الجامدين فتنة لأعداء الإسلام وحجة عليه

ونعود إلى المسلم الجامد فنقول: إنه هو الذي طرق لأعداء الإسلام على الإسلام، وأوجد لهم السبيل إلى القالة بحقه، حتى قالوا: إنه دين لا يأتلف مع الرقي العصري، وأنه دين حائل دون المدنية. والحقيقة أن هؤلاء الجامدين هم الذين لا تألف عقائدهم مع المدنية وهم الذين يحولون دون الرقي العصري. والإسلام براء من جماداتهم هذه.

إن الإسلام هو من أصله ثورة على القديم الفاسد، وجبٌّ للماضي القبيح، وقطعٌ مع كل العلائق غير الحقائق، فكيف يكون الإسلام ملة الجمود؟ والقرآن هو الذي جاء فيه من قصة إبراهيم عليه السلام: ﴿**إذ قال لأبيه وقومه ما**

هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون❖ قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين. لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين﴾ وجاء فيه **﴿قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين❖ قال هل يسمعونكم إذ تدعون❖ أو ينفعونكم أو يضرون؟❖ قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلوا. قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون❖ فإنهم عدو لي إلا رب العالمين﴾** وجاء فيه: **﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة وأنا على آثارهم مقتدون❖ قال أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم﴾** وجاء فيه **﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤكم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون﴾** وجاء فيه: **﴿سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟ قل الله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾** وغير ذلك من الآيات الداعية إلى الثورة على القديم إذا لم يكن صحيحاً ولم يكن صالحاً.

على أن الذين يفهمون الإسلام حق الفهم يرحبون بكل جديد لا يعارض العقيدة، ولا تخشى منه مفسدة. ولا أظن شيئاً يفيد المجتمع الإسلامي يكون مخالفاً للدين المبني على

إسعاد العباد. أفلا ترى علماء نجد وهم أبعد المسلمين عن الإفرنج والتفرنج، وأنآهم عن مراكز الاختراعات العصرية، كيف كان جوابهم عندما استفتاهم الملك عبد العزيز بن سعود أيده الله في قضية اللاسلكي والتليفون والسيارة الكهربائية؟ أجابوه أنها محدثات نافعة مفيدة، وأنه ليس في كتاب الله ولا في سنة رسول الله لا بالمنطوق ولا بالمفهوم ما يمنعها.

أفليس الأدنى لمصلحة الأمة أن تقدر الدولة على معرفة أي حادث يحدث بمجرد وقوعه حتى تتلافى أمره؟ أفليس الأنفع للمسلمين أن يتمكن الحاج ببضع ساعات من اجتياز المسافات التي كانت تأخذ أياماً ولياليَ؟ لقد سألت الشيخ محمد بن علي بن تركي من العلماء النجديين الذين بمكة عن رأيه في التليفون واللاسلكي فقال لي: هذه مسألة مفروغ منها، وأمر جوازها شرعاً هو من الوضوح بحيث لا يستحق الأخذ والرد.

ولم تكن مقاومة الجديد خاصة بجامدي الإسلام، فقد قاومت الكنيسة في النصرانية كل جديد تقريباً من قول أو عمل، ثم عادت فيما بعد فأجازه. ولما قال "غاليله"

بدوران الأرض كفرته، ولا يزال يوجد إلى اليوم من أحبار النصارى من يكفر كل مخالف لما جاء في التوراة من كيفية التكوين، ومن سنتين حوكم أحد المعلمين في محاكم إحدى الولايات المتحدة لقوله بنظرية داروين ومنع من التدريس، ولكن هذا لم يمنع سير العلم في طريقه[1].

فالنصارى عندهم جامدون كما عندنا جامدون، والمسلم الجامد يحارب كل علم غير العلم الديني التقليدي الذي ألفه، حتى أنه ليحارب من لا يعتد في دينه إلا بالكتاب والسنة، وينسى أن العلوم الطبيعية والرياضية والهندسة وجر الأثقال والفلك والطب والكيمياء وطبقات الأرض وكل علم يفيد الاجتماع البشري هي علوم دينية إن لم تكن مباشرة فمن حيث النتيجة[2] وكم جرى تدريس هذه العلوم في

---

(1) وقد تألف في إنكلتره وأمريكة حزب ديني جديد أو جمعية للدعوة إلى الإيمان بظواهر التوراة في الخلق والتكوين وكل شيء من غير تأويل (راجع ص 723م. 3 من المنار).

(2) أي من باب قول العلماء: ما لا يتم الواجب المطلق إلا به فهو واجب. وقد بينا في تفسير ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾ إن آلات القتال البرية والبحرية والجوية واجبة بنص هذه الآية لأنها من القوة المستطاعة للمسلمين كما هي مستطاعة لغيرهم، فليس وجوبها بقاعدة ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب بل بنص القرآن ودلالة المنطوق منه فراجع تفسيرها في ص 61 تفسير.

الأزهر والأموي والزيتونة والقرويين وقرطبة وبغداد وسمرقند وغيرها عندما كان للإسلام دول كبار وأعاظم رجال. وكم نَبغَ في الإسلام من عظماء جمعوا بين الحكمة والشريعة، ونظموا بين الحديث والرياضة، وإن أكبر فيلسوف عربي اشتهر في أوربة هو القاضي ابن رشد وقد كان من أكابر الفقهاء.

مدنية الإسلام

أما زعم من زعم أن الإسلام لم يتمكن من تأسيس مدنية خاصة والاستدلال على ذلك بحالته الحاضرة، فهو خرافة يموه بها بعض أعداء الإسلام من الخارج، وبعض جاحديه من الداخل. أما القسم الأول فلأجل أن يصبغوا المسلمين بالصبغة الأوربية، وأما القسم الثاني فلأجل أن يزرعوا في العالم الإسلامي بذور الإلحاد، ونحن لا ننكر تأثير الدين في المدنية ولكننا لا نسلم بأنه يصح أن يكون لها ميزاناً، وذلك لأنه كثيراً ما يضعف تأثير الدين في الأمم فتتفلت من قيوده وتفسد أخلاقها وتنهار أوضاعها، فيكون فساد الأخلاق هو علة السقوط، ولا يكون الدين هو المسؤول، وكثيراً ما تطرأ عوامل خارجية غير منتظرة فتتغلب على ما أثلته الشرائع من حضارة وتزلزل أركانها،

وقد تهدمها من بوانيها، ولا يكون القصور من الشريعة. فتأخر المسلمين في القرون الأخيرة لم يكن من الشريعة بل من الجهل بالشريعة. فتأخر المسلمين في القرون الأخيرة لم يكن من الشريعة بل من الجهل بالشريعة، أو من عدم إجراء أحكامها كما ينبغي. ولما كانت الشريعة جارية على حقها كان الإسلام عظيماً عزيزاً.

ومدنية الإسلام قضية لا تقبل المماحكة إذ ليس من أمة في أوربة سواء الألمان أو الفرنسيس أو الإنكليز أو الطليان إلخ إلا وعندهم تآليف لا تحصى في "مدنية الإسلام" فلو لم تكن للإسلام مدنية حقيقية سامية راقية مطبوعة بطابعه، مبنية على كتابه وسننه، ما كان علماء أوربة حتى الذين عرفوا منهم بالتحامل على الإسلام يكثرون من ذكر المدنية الإسلامية ومن سرد تواريخها، ومن المقابلة بينها وبين غيرها من المدنيات، ومن تبيين الخصائص التي انفردت هي بها.

فالمدنية الإسلامية هي من المدنيات الشهيرة التي يزدان بها التاريخ العام، والتي تغص سجلاته الخالدة بآثارها الباهرة. وقد بلغت بغداد في دور المنصور والرشيد والمأمون

من احتفال العمارة، واستبحار الحضارة، وتناهي الترف والثروة، ما لم تبلغه مدينة قبلها ولا بعدها إلى هذا العصر، حتى كان أهلها يبلغون مليونين ونصف مليون من السكان. وكانت البصرة في الدرجة الثانية عنها، وكان أهلها نحو نصف مليون.

وكانت دمشق والقاهرة وحلب وسمرقند وأصفهان وحواضر أخرى كثيرة من بلاد الإسلام أمثلة تامة، وأقيسة بعيدة في استبحار العمران، وتطاول البنيان، ورفاهة السكان، وانتشار العلم والعرفان، وتأثل الفنون المتهدلة الأفنان.

وكانت القيروان وفاس وتلمسان ومراكش في المغرب أعظم وأعلى من أن يطاولها مطاول، أو يناظرها مناظر، أو أن يكاثرها مكاثر في ممالك أوربة حتى هذه القرون الأخيرة.

وكانت قرطبة مدينة فذة في أوربة لا يدانيها مدان، وكان عدد سكانها نحو مليون ونصف نسمة، وكان فيها نحو سبعمائة جامع عدا المسجد الأعظم الذي لما زرته في هذا

الصيف قال لي المهندس الذي كان معي من قبل الحكومة الإسبانولية: إنه يسع بحسب مساحته خمسين ألف مصل في الداخل و30 ألف مصل في الصحن، فجملة من يسعهم هذا المسجد العجيب ثمانون ألفاً من المصلين.

ولما ذهبنا إلى آثار قصر الزهراء رأيناها آثار مدينة لا آثار قصر واحد، وعلمنا أنها تمتد على مسافة تسعمائة متر طولاً في ثمانمائة متر عرضاً، والإسبانيول يقول: مدينة الزهراء. وقال لي المهندسون الموكلون بالحفر على آثارها: إنهم يرجون الإتيان على كشفها كلها من الآن إلى خمسين سنة. وحسبك أن غرناطة التي كانت حاضرة مملكة صغيرة في آخر أمر المسلمين بالأندلس لم يكن في أوربة في القرن الخامس عشر المسيحي بلدة تضاهيها ولا تدانيها، وكان فيها عندما سقطت في أيدي الإسبانيول نصف مليون نسمة. ولم يكن وقتئذ عاصمة من عواصم أوربة تحتوي نصف هذا العدد، وحمراء غرناطة لا تزال يتيمة الدهر إلى اليوم.

هذه لمحة دالة من مآثر حضارة الإسلام وغرر أيامه، وإلا فلو استقصينا كل ما أثر المسلمون في الأرض من رائع

وبديع لم تسمع ذلك الجلود الكثيرة، المرصوفة طبقاً فوق طبق.

وكم حرر المؤرخون الأوروبيون تحت عنوان "مدنية الإسلام" كتباً قيمة ومجاميع صور تأخذ بالإبصار. وإن أشد مؤرخي الإفرنجية تحاملاً على الإسلام لا يتعدى أن يحاول التصغير من شأن مدنيته، وأن ينكر كونه أبا عذرتها. فقصارى هذه الفئة أن ينكروا كون المسلمين لم يزيدوا على أن نقلوا وأذاعوا وكانوا واسطة بين المشرق والمغرب. وهذا القول مردود عند المحققين الذين يعرفون للمسلمين علوماً ابتكروها، وحقائق كشفوها، وآراء سبقوا إليها، فضلاً عما زادوا عليه وأكملوه، وما نشروه ونقلوه، ومن استرقَ شيئاً وقد استرقّه، فقد استحقه.

وبعد فلم نعلم مدنية واحدة من مدنيات الأرض إلا وهي رشح مدنيات سابقة، وآثار آراء اشتركت بها سلائل البشرية، ومجموع نتائج عقول مختلفة الأصول، ومحصول ثمرات ألباب متباينة الأجناس.

الرد على حساد المدنية الإسلامية المكابرين

أينسى حساد الإسلام والمكابرون في عظمة فضله، الزاعمون أنه إنما نقل وتعلم وقلد واقتدى وأنه إنما صلى وراء غيره: أن المدنية الشرقية يوم ظهر الإسلام كان أخنى عليها الذي أخنى على لبد، وأنه هو الذي جددها وأحيا آثارها، وأقال عثارها؟ وأنها بعد أن كانت قد أمحت ولحقت بالغابرين، أبرزها من أصدافها، وجلاها من بعد أن كانت ملفوفة بغلافها، ونشرها في الخافقين، وبلّجها كفلق الصبح لكل ذي عينين، وأضفى عليها لباس الإسلام الخاص، ودبجها بديباجة القرآن، التي لم تفارقها في شرق ولا غرب، ولا سهل ولا وعر، حتى حمل ذلك كثيراً من علماء الإفرنج ممن لم يعمه الهوى، ولم يحد في التحقيق عن مهيع الهدى، على أن اعترفوا بأن مدنية الإسلام لم تكن

نسخاً ولا نقلاً وإنما هي قد نبعت من القرآن، وتفجرت من عقيدة التوحيد؟

فأمّا ما ترجمته حضارة الإسلام من كتب، وما أخذته عن غيرها من علوم، وما أفادته في فتوحاتها من منازع جميلة، وطرائق سديدة، فلا يقدح ذلك في بكارتها الإسلامية، ومسحتها العربية، لأن هذا شأن الحضارات البشرية بأجمعها أن يأخذ بعضها عن بعض ويكمل بعضها بعضاً، فالعلم الحقيقي ينحصر في هذا الحديث الشريف "الحكمة ضالة المؤمن ينشدها ولو في الصين"[1] وهذه من أقدس قواعد الإسلام.

وعلى كل حال لا يقدر مكابر أن يكابر أن الإسلام كان له دور عظيم في الدنيا سواء في الفتوحات الروحية أو العقلية أو المادية، وأن هذه الفتوحات قد اتسقت له في دور لا يزيد على ثمانين سنة، مما أجمع الناس على أنه لم يتسق

---

[1] هذا مضمون حديثين أحدهما "الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها" رواه الترمذي من حديث أبي هريرة، ورواه غيره بمعناه مع اختلاف في اللفظ. والثاني "اطلبوا العلم ولو بالصين" وذكره الكاتب في موضع آخر وهناك تذكر من خرجه.

لأمة قبله أصلاً. وكان نابليون الأول لشدة دهشته من تاريخ الإسلام يقول في جزيرة سنتيهلانة: إن العرب فتحوا الدنيا في نصف قرن لا غيره.

وتأمل أيها القارئ في أن قائل هذا القول هو بونابرت الذي لم تكن تملأ عينه الفتوحات مهما كانت عظيمة.

وتعظم في عين الصغير صغارها

وتصغر في عين العظيم العظائم

فهذا رجل عظيم جداً استعظم حادث العرب الذي لم يسبق نظيره في التاريخ، وقد بقي دور العرب هو الأول في وقته، ولبثوا وهم المسيطرون في الأرض، لا يضارعهم مضارع، ولا يغالبهم مغالب، مدة ثلاثة قرون أو أربعة. ثم أخذوا بالانحطاط، وجعلت ظلالهم تتقلص عن البلدان التي كانوا غلبوا عليها شيئاً فشيئاً، وذلك بفتور الهمم، ودبيب الفساد إلى الأخلاق، ونبذ عزائم الدين، واتباع شهوات الأنفس، وأشد ما ابتلوا به التنافس على الإمارات والرئاسات، ـ ولاسيما بين القيسية واليمانية ـ مما لولاه لدانت لهم القارة الأوربية بأجمعها، وكانت الآن عربية كما

هـو المغـرب. فالمصـائب الـتي حلـت بالمسـلمين إنمـا هـي ممـا صـنعته أيـديهم، وممـا حـادوا بـه عـن الـنهج السـوي الـذي أوضحه لهم القرآن الذي لما كانوا عاملين بمحكم آية علواً وظهروا وكانت لهم الدول والطوائل، فلما ضعف عملهم به وصاروا يقرؤنه بدون عمل، وانقادوا إلى أهواء أنفسهم من دونه، ذهبت ريحهم، وولى السلطان الأكبر الذي كان لهم، وانتقصت الأعداء أطراف بلادهم، ثم قصدوا إلى أوساطهم.

ولنضـرب الآن بعـض أمثلـة عـن الأمـم الأخـرى لأجـل المقابلة بيننا وبينهم إذ كانت بضدها تتبين الأشياء.

اليونان والرومان قبل النصرانية وبعدها

كان اليونانيون قبل النصرانية أرقى أمم الأرض أو من أرقى أمم الأرض، وكانوا واضعي أسس الفلسفة، وحاملي ألوية الآداب والمعارف، ونبغ منهم من لا يزالون مصابيح البشرية في العلم والفلسفة إلى يوم الناس هذا.

وكان الاسكندر المكدوني أعظم فاتح عرفه التاريخ أو من أعظم الفاتحين الذين عرفهم التاريخ، حاملاً للأدب اليوناني، ناشراً لثقافة يونان بين الأمم التي غلب عليها. وما كانت دولة البطالسة التي لمعت في الاسكندرية بعلومها وفلسفتها إلا من بقايا فتوح الاسكندر. ثم لم تزل هذه الحالة إلى أن تنصرت يونان بعد ظهور الدين المسيحي بقليل، فمذ دانت هذه الأمة بالدين الجديد بدأت بالتردي والانحطاط، وفقد مزاياها القديمة، ولم تزل تنحط قرناً

عـن قـرن، وتتـدهور بطنـاً عـن بطـن، إلى أن صـارت بـلاد اليونان ولاية من جملة ولايات السلطنة العثمانية. ولم تعد إلى شيء من النهوض والرقي إلا في القرن الماضي، وأين هـي مع ذلك الآن مما كانت قبل النصرانية؟

أفيجـب أن نقـول: إن النصـرانية كانـت المسـؤولة عـن انحطاط يونان هذا؟

إن القائلين بأن الإسلام قد كان سبب انحطاط الأمم الدائنة به لا مفر لهم من القول بـأن النصـرانية قد أدت أيضاً إلى انحطاط يونان التي كانت من قبلها عنوان الرقي.

ثـم كانـت رومية في عصـرها الدولـة العظمـى الـتي لا يـذكر معهـا دولـة، ولا يؤبـه في جانـب صـولتها لصـولة، ولم تزل هكذا هـي المسيطرة على المعمور إلى أن تنصرت لعهد قسطنطين. فمنذ ذلك العهد بدأت بالانحطاط مادة ومعنى، إلى أن انقرضـت أولاً مـن الغـرب، وثانيـاً مـن الشـرق. ولم تسـترجع رومية بعـد انقـراض الدولـة الرومانيـة شـيئاً مـن مكانتهـا الأولى، وبقيـت علـى ذلـك مـدة 15 قرنـاً حتـى استأنفت شيئاً من مجدها الغابر. وما هـي إلى هـذه السـاعة ببالغة ذلك الشأو الذي بلغته أيام الوثنية.

أفنجعل تنصر الرومان هو العامل في انحطاط روما وتدحرجها عن قمة تلك العظمة الشاهقة؟ لقد قال بهذا علماء كثيرون كما قال آخرون مثل هذه المقالة في الإسلام، وكلا الفريقين جائر حائد عن الصواب.

فإن لسقوط الرومان بعد فشو الدين المسيحي فيهم ولسقوط اليونان من قبلهم بعد أن تقبلوا دعوة بولس إلى النصرانية أسباباً وعوامل كثيرة من فساد الأخلاق، وانحطاط الهمم، وانتشار الخنى والخلاعة، وشيوع الإلحاد والإباحة، ومن هرم الدول الذي يتكلم عنه ابن خلدون، وغير ذلك من أسباب السقوط الداخلية منضمة إليها غارات البرابرة من الخارج، فكانت ثمة أسباب قاسرة مؤدية إلى السقوط الذي كان لا بد منه، فلو فرضنا أن النصرانية لم تكن جاءت وقتئذ لم يكن الرومان ولا اليونان نجوا من عواقب تلك الحوادث ولا تخطتهم نتائج تلك الأسباب.

فدعوى بعض المؤرخين الأوربيين أن تغلب المسيحية على اليونان والرومان أخنى على عظمتها، وذهب بمدنيتها، ليس فيه من الصحيح إلا كون الأوضاع الجديدة تذهب بالأوضاع القديمة، سنة الله في خلقه، وأنه في هيعة هذا التحول لا بد

من اضطراب الأحوال وانحلال القواعد واستحكام الفوضى، وإلا فلا أحد يقدر أن يقول أن الوثنية أصلح للعمران من النصرانية[1].

وهذه الدعوة كادت تكون أشبه بدعوى أعداء الإسلام الذين يزعمون أن الشرق كان راتعاً في بحابح العمران، فجاء الإسلام وطمس المدنيات الشرقية القديمة! لولا أن الحقيقة هي كما قدمنا أن المدنيات الشرقية كانت كلها قد انقرضت وانحطت قبل ظهور الإسلام بكثير، وأن الإسلام وحده لا غيره هو الذي جدد مدنية الشرق الدارسة،

---

(1) علماء المسلمين يعتقدون أن النصرانية على ما طرأ عليها من الوثنية بالتثليث الوثني القديم أصلح لأنفس البشر من الوثنية الخالصة ولكنها ليست أصلح ولا أقبل للعمران المدني الذي تتنافس فيه أوربة وغيرها لأنها ديانة مبنية على المبالغة في الزهد والخضوع لكل حكم دنيوي، والعمران لا يتم ولا يسموا إلا بالسيادة والملك والغنى، ومن قواعد الإنجيل أن الجمل إذا دخل في ثقب الإبرة فالغني لا يدخل ملكوت السموات، وتعتقد أيضاً أن جميع ما جاء به المسيح عليه السلام من الدين فهو حق وكان البشر في أشد الحاجة إلى ما فيه من المبالغة في الزهد والتواضع لمقاومة ما كان عليه اليهود وحكامهم الروم (الرومان) من الطمع والكبرياء والعتو وأن هذا كان تمهيداً للإسلام الدين الوسط المعتدل الجامع بين مصالح الدنيا والآخرة فما ذكرناه من اعتقادنا يتضمن اعترافنا بحقيقة دين المسيح في نفسه وبكونه من عند الله تعالى مع التعارض بينه وبين ديننا الناسخ له ومن وظيفتي أن أبين هذا في حاشية مقال كتب للمنار باقتراح من أحد تلاميذ المنار على أمير البيان.

واستأنف صولته الذاهبة الطامسة، وبعث تلك الحواضر العظمى الزاهرة بالبشر كبغداد والبصرة وسمرقند وبخارى ودمشق والقاهرة والقيروان وقرطبة وهلم جرا، ولئن كانت قد بقيت للشرق آثار مدنيات قديمة فإن الإسلام هو الذي وطد بوانيها، وطرز حواشيها، وحمل السيف بيد والقلم بيد إلى أبعد ما تصوره العقل من حدود الأقطار التي لم يسبق لشرقي أن يطأها بقدمه.

فإذا كان الإفرنج الصليبيون من الغرب، وكان المغول أولئك الجراد المنتشر من الشرق، قد تبرّوا ما علا الإسلام في تلك الممالك، ونسفوا عمران هاتيك الحواضر، وكانت منافسات ملوك الإسلام الداخلية واتباعهم للشهوات، وإمعانهم في الضلالات، ومحيدهم عن جادة القرآن القويمة، وفقدهم ما يزرعه في الصدور من الأخلاق العظيمة، قد قضت في الداخل، على ما عجز عن تعفيته العدو من الخارج، فليس الذنب في هذا التقلص ذنب الإسلام، ولا التبعة في هذا الانقلاب عائدة على القرآن، وإنما الذنب هو ذنب الهمج من الإفرنج، وجناية ذلك الجراد الزحاف من المغول، وإنما هي تبعة المسلمين الذين رغبوا عن أوامر كتابهم واشتروا بآياته ثمناً قليلاً، إلا النادر منهم.

وأيضاً فقد تنصرت الأمم الأوروبية في القرن الثالث والرابع والخامس والسادس من ميلاد المسيح، وبقيت أمم في شرقي أوروبة إلى القرن العاشر حتى تنصرت. ولم تنهض أوربة نهضتها الحالية التي مكنتها تدريجياً من هذه السيادة العظمى بقوة العلم والفن إلا من نحو أربعمائة سنة، أي من بعد أن دانت بالإنجيل بألف سنة. ومنها بعد أن دانت به بسبعمائة سنة ومنها بثمانمائة سنة إلخ وهذه هي القرون المسماة في التاريخ بالقرون الوسطى. ولا نقول إن الأوربيين كانوا في هذه القرون بأجمعهم هائمين في ظلمات بعضها فوق بعض، بل نقول إن العرب كانوا أعلى كعباً منهم بكثير في المدنية بإقرار مؤرخيهم، وبرغم أنف لويس برتران وإضرابه. ومن الكتب المخرجة حديثاً الشاهدة بذلك التاريخ العام للكاتب الفيلسوف الإنكليزي "ولز" و"تاريخ مدنيات الشرق" لمؤلف إفرنسي متخصص في التواريخ الشرقية اسمه "غروسه" فالحقيقة التاريخية المجمع عليها هي واحدة في هذا الموضوع لم يظهر ما ينقضها ولن يظهر، وهي: أن العرب في القرون الوسطى كانوا أساتيذ الأوربيين، وكان الواحد من هؤلاء إذا تخرج على العرب تباهى بذلك بين قومه.

سبب تأخر أوربة الماضي ونهضتها الحاضرة

أفنجعل هذا التأخر الذي كان عليه الأوربيون في القرون الوسطى مدة ألف سنة ناشئاً عن النصرانية التي كانت دينهم الذي يعضون عليه بالنواجذ؟

نعم، أن الأمم البروتستانتية منهم تجعل مصدر هذا التأخر الكنيسة البابوية لا النصرانية من حيث هي. وتزعم أن نهضة أوربة لم تبدأ إلا بخروج (لوثير، وكلفين) على الكنيسة الرومانية.

وأما فولتير ومن في حزبه من أقطاب الملاحدة فلا يفرقون كثيراً بين الكاثوليك والبروتستانت، وعندهم أن جميع هذه العقائد واحدة وإنها عائقة عن العلم والرقي، ولهذا قال فولتير تلك الكلمة عندما ذكر لديه لوثير، وكلفين، قال: "كلاهما لا يصلح أن يكون حذاء لمحمد

"يريدان أن محمداً ﷺ بلغ من الإصلاح ما لم يبلغا أدناه، مع اعتقاد الكثيرين أن مذهبهما كان فجر أنوار أوربة[1].

والحق الذي لا نرتاب فيه أن النصرانية نفسها لم تكن هي المسؤولة عن جهالة الإفرنج المسيحيين مدة ألف سنة في القرون الوسطى بل للمسيحية الفضل في تهذيب برابرة أوربة.

وهؤلاء اليابانيون هم وثنيون. ومنهم من هم على مذهب بوذا. ومنهم من يقال لهم طاويون، وكثيرون منهم يتبعون الحكيم الصيني كنفوشيوس. ولقد مضى عليهم نحو ألفي سنة ولم تكن لهم هذه المدنية الباهرة ولا هذه القوة والمكانة بين الأمم. ثم نهض اليابان من نحو ستين سنة وترقوا وعزوا وغلظ أمرهم، وعلا قدرهم، وصاروا إلى ما صاروا إليه ولم يبرحوا وثنيين.

---

(1) ونحن نعتقد هذا وكان شيخنا الأستاذ الإمام وأذكياء مريديه كسعد باشا زغلول يعتقدونه ولكن بمعنى سلبي وهو أن هذا المذهب أضعف حجر الكنيسة على العقول البشرية وتقييدها بتعاليمها وفهمها للدين ورأيها في الدنيا، وكان سبب هذا المذهب ما سرى إلى أوربة عقب الحروب الصليبية بمعاشرة المسلمين من استقلال العقل في فهم الدين وعدم سيطرة أحد عليهم فيه كما بينه شيخنا في كتاب الإسلام والنصرانية.

فلا كانت الوثنية إذاً سبب تأخرهم الماضي، ولا هي سبب تقدمهم الحاضر، وقد تقاوت اليابان والروسية وتحاربتا فتغلبت اليابان على الروسية. مع أن اليابانيين في العدد هم نصف الروس، ولكن مما لا شك فيه أن اليابانيين أرقى من الروس، والحال أن الروسية عريقة في النصرانية واليابان عريقة في الوثنية.

فليترك إذاً بعض الناس جعل الأديان هي المعيار للتأخر والتقدم[1].

أفنقول من أجل هذا المثال: إن الإنجيل هو الذي أخر الروسية عن درجة اليابان، وأن عبادة الآلهة ابنة الشمس هي التي جذبت بضبع اليابان حتى سبقت الروسية؟

إن لهذه الحوادث أسباباً وعوامل متراكمة ترجع إلى أصول شتى. فإذا تراكمت هذه العوامل في خير أو شر تغلبت على تأثير الأديان والعقائد، وأصبحت فضائل أقوام الأديان

---

(1) هذا صحيح في جملة الأديان إلا الإسلام فقرآنه وتاريخه يثبتان أنه هو سبب تقدم أهله حين اهتدوا به وسبب تأخرهم حين أعرضوا عنه، كما بين هذا الأمير الكتاب في رسالته هذه فأظلم الظلم أن يجعل سبب تأخرهم.

عاجزة بإزاء شرها، كما أصبحت معايب أسخفها غير مؤثرة في جانب خيرها.

ولسنا هنا في صدد أسباب تقدم اليابان السريع حتى نبين أن اعتقاد عامتهم "وجود حصان مقدس يركبه الإله فلان" لم يقف حائلاً دون تقدمهم المبني على ما ركب في فطرتهم من الحماسة، وما أوتوا من الذكاء، وما أورثهم نظام الإقطاع القديم من التنافس في المجد والقوة.

وعندنا أمثلة كثيرة لا تكاد تحصى في هذا الباب اجتزأنا منها بما ذكرناه. ولم نكن لنتعرض لهذا المقام لولا حملات القسوس والمبشرين وكثير من الأوربيين على الإسلام، وزعمهم أنه هو عنوان التأخر، وأنه رمز الجمود، وتحدثهم بذلك في الأندية والمجامع، ونشرهم هذه الافتراءات في المجلات والجرائد، وقولهم إن الشجرة تُعرف من ثمارها، وأن حالة العالم الإسلامي الحاضرة هي نتيجة جمود الإسلام، وتحجر القرآن! ﴿**كبرت كلمة تخرج من أفواههم أن يقولون إلا كذباً**﴾.

وحسبك أن المسيو "سان المقيم الإفرنسي السامي" في المغرب ينشر في العدد الأخير من "مجلة الأحياء" الإفرنسية مقالة يتكلم فيها عن يقظة المغرب بعد "ليل الإسلام"! هكذا تعبيره.

فإن كان تأخر إحدى الممالك الإسلامية حقبة من الدهر يجب أن يقال فيه "ليل الإسلام فكم كان ليل النصرانية طويلاً عندما بقيت أوربة المسيحية زهاء ألف سنة وهي في حالة الهمجية أو ما يقرب من الهمجية.

لماذا أيها الناس تدخلون الأديان فيما هي براءة منه؟ ولماذا تقحمونها في موضوع يكذبكم فيه التاريخ بأماثيله الجمة.

إن إدخال الأديان في هذا المعترك وجعلها هي معيار الترقي والتردي ليس من النصفة في شيء.

حث القرآن على العلم

باعث للمسلمين على سبق الأمم في الرقي

العالم الإسلامي يمكنه النهوض والرقي واللحاق بالأمم العزيزة الغالبة إذا أراد ذلك المسلمون ووطنوا أنفسهم عليهم. ولا يزيدهم الإسلام إلا بصيرة فيه وعزماً. ولن يجدوا لأنفسهم حافزاً على العلم والفن خيراً من القرآن الذي فيه ﴿**هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون**﴾ والذي فيه: ﴿**وزاده بسطة في العلم**﴾ والذي فيه: ﴿**وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم**﴾ والذي فيه: ﴿**شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط**﴾ والذي فيه: ﴿**بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم**﴾ والذي فيه: ﴿**ويرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات**﴾ والذي

فيه: ﴿**ويعلم الكتاب والحكمة**﴾ وفيه: ﴿**يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً**﴾ وفيه: ﴿**فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً**﴾ وغير ذلك من الآيات الكريمة، وفيه ما هو خاص بالأمة العربية: ﴿**هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين**﴾.

وقد زعم بعضهم ومن جملتهم (سيكار) هذا الذي بالمغرب الذي ألف في الطعن على الإسلام، والذي يكتب في مجلة "مراكش الكاثوليكية" أن المراد بلفظة "العلم" في القرآن هو العلم الديني ولم يكن المقصود به العلم مطلقاً لنستظهر به على قضية تعظيم القرآن للعلم وإيجابه للتعليم. وقد أتى سيكار من المغالطة في هذا الباب ما لا يستحق أن يرد عليه لما فيه من المكابرة في المحسوس. وكل من تأمل في مواقع هذه الآيات المتعلقة بالعلم وبالحكمة وغيرها مما يحث على السير في الأرض والنظر والتفكر يعلم أن المراد هنا بالعلم هو أطلقه متناولاً كل شيء، وأن المراد بالحكمة هي الحكمة العلمية المعروفة عند الناس، وهي غير الآيات

المنزلة والكتاب كما يدل عليه العطف وهو يقتضي المغايرة. ويعزز ذلك الحديث النبوي الشهير: "اطلبوا العلم ولو في الصين"[1]. فلو كان المراد بالعلم هو العلم الديني كما زعم سيكار ما كان النبي ﷺ يحث على طلبه ولو في الصين إذ أهل الصين وثنيون لا يجعلهم النبي مرجعاً للعلم الديني كما لا يخفي.

وفي بعض الآيات من القرائن اللفظية والمعنوية ما يقتضي أن المراد بالعلم علم الكون لأنه في سياق آيات الخلق والتكوين وهي في القرآن إضعاف الآيات في العبادات العملية كالصلاة والصيام كقوله تعالى: ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها. ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود، ومن الناس والدواب والنعام مختلف ألوانه كذلك، إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ أي العلماء بما ذكر في الآية من الماء والنبات والجبال وسائر المواليد المختلفة الألوان وما فيها من أسرار الخلق لا العلماء بالصلاة والصيام والقيام.

---

[1] تتمنه "فإن العلم فريضة على كل مسلم" رواه العقيلي وابن عدي والبيهقي وابن عبد البر وعن أنس وفيه عند الخير زيادة أخرى في فضل العلم وله طرق يقوي بعضها بعضاً.

وقد كنا ظننا هذا الرجل على شيء من حب الحقيقة، فلما أنكر المدنية الإسلامية رددنا عليه في المنار وجادلناه بالتي هي أحسن، وعظمنا من قدر المدنية المسيحية، ووقرنا منها ورددنا على القائلين من الأوربيين بأن النصرانية كانت وقفاً لسير المدنية وسبباً لسقوط اليونان والرومان إلى غير ذلك. فكان من سيكار هذا أن نشر سلسلة مقالات تتضمن من الطعن على الإسلام ما لو جئنا نردُّه لم نستغن عن إيراد شبه واعتراضات تتعلق بالدين المسيحي مما تأبي أن نتعرض له لأنه ليس من العدل ولا من الكياسة ولا من حسن الذوق أن نغيظ إخواننا المسيحيين من أجل رجل اسمه سيكار أو غيره من هذه الطبقة من الدعاة والمبشرين... هذا زائداً إلى ما رأيناه في كلامه من الخلط والخبط والمغالطة التي من قبيل قوله: إن العلم المقصود في القرآن ليس هو العلم المعروف عند الناس بمفهومه المطلق وغ، ما هو العلم الديني فقط لن القرآن لا يهمه شيء من علوم الدنيا! فمكابر كهذا لا يستحق الجواب.

ثم علمنا أن المسيو سيكار هذا هو من مستخدمي فرنسة في الرباط بإدارة الأمور الإسلامية وأنه هو والمسيو

لـويس برينـو مـدير التعلـيم الإسـلامي هنـاك ـ والقومنـدان مـاركو مـدير قلـم المراقبـة علـى الجرائـد والمطبوعـات ـ والقومنـدان مـارتي مستشـار العدليـة الإسـلامية ـ ورهطـاً آخـرين هـم الـذين لعبـوا الـدور الأهـم في قضـية العلـم لتتصـير البربر. وما كان استخدام فرنسة لهم في مهمات كلها عائدة للإسـلام إلا علـى نيـة نقـض كـل مـا يقـدرون عليـه مـن بنـاء الإسلام بالمغرب. وستذوق فرنسة ولو بعد حين وبال ما علمته وتعلمه من التعرض للدين الإسلامي الذي تعهدت في معاداتها باحترامه.

كلمة لطلاب النهضة القومية دون الدينية

يقول بعض الناس[1] ما لنا وللرجوع إلى القرآن في ابتعاث همم المسلمين إلى التعليم فإن النهضة لا ينبغي أن تكون دينية بل وطنية قومية كما هي نهضة أهل أوربة، ونجيبهم: إن المقصود هو النهضة سواء كانت وطنية أم دينية[2] على شرط أن تتوطن بها النفوس على الخب في حلبة العلم. ولكننا نخشى إن جردناها من دعوة القرآن، أن نفضي بنا إلى الإلحاد والإباحة، وعبادة الأبدان، واتباع الشهوات، مما ضرره يفوق نفعه. فلا بد لنا من تربية علمية سائرة جنباً إلى جنب مع تربية دينية، وهل يظن الناس عندنا

---

(1) أي من ملاحدة المسلمين الجاهلين أو المتجاهلين لحال أوربة في عصبيتها الدينية.

(2) ولكن المسؤول عنه هو نهضة المسلمين من حيث هم مسلمون.

في المشرق أن نهضة من نهضات أوربة جرت بدون تربية دينية؟

أفلم يقل رئيس نظار ألمانية في الرايستاغ منذ ثلاث سنوات: إن ثقافتنا مبنية على الدين المسيحي. وهذا هو إعلان ألمانية التي هي المثل الأعلى في العلم والصناعة وإتقان الآلات والأدوات، لا ينازع في ذلك أحد، ولا أعداؤها.

أفتوجد جامعة في ألمانية وإنكلترة أو غيرهما من هذه الممالك الراقية بدون أن يكون فيها علم اللاهوت المسيحي؟[1].

ثم إنهم عندما يقولونه في أوربة "نهضة وطنية" أو "نهضة قومية" أو جامعة وطنية أو قومية، لا يكون مرادهم بالوطن التراب والماء والشجر والحجر. ولا بالقوم السلالة التي تتحدر كلها من دم واحد. وإنما الوطن والقوم عندهم لفظتان تدلان على وطن وأمة بما فيهما من جغرافية وتاريخ وثقافة وحرث وعقيدة ودين وخلق وعادة مجموعاً ذلك معاً، وهذا الذي يناضلون عنه ويستبسلون كل هذا الاستبسال من أجله.

---

[1] هذا بعد التربية المنزلية الدينية المحضة والتربية المدرسة الابتدائية وجلها دينية.

خلاصة الجواب

إن المسلمين ينهضون بمثل ما نهض به غيرهم.

إن الواجب على المسلمين لينهضوا ويتقدموا ويعرجوا في مصاعد المجد ويترقوا كما ترقى غيرهم من الأمم هو الجهاد بالمال والنفس الذي أمر به الله في قرآنه مراراً عديدة، وهو ما يسمونه اليوم "بالتضحية".

فلن يتم للمسلمين ولا لأمة من الأمم نجاح ولا رقي إلا بالتضحية، وربما كان الشيخ محمد بسيوني عمران أو غيره من السائلين عن رأينا في هذا الموضوع قد ظن أني سأجيبه أن مفتاح الرقي هو قراءة نظريات "اينشتين" في النسبية مثلاً أو درس أشعة "رونتجين" أو ميكروبات "باستور" أو التعويل في اللاسلكي على التموجات الصغيرة دون الكبيرة، أو درس اختراعات "اديسون"، وأن سبب حادثة المنطاد

الإنكليزي الذي سقط أخيراً أو احترق هو كونه لم ينفخ بالهليوم وإنما نفخ بالهيدروجين، والحال إن الهيدروجين ـ وإن كان أخف في الوزن ـ قابل للاشتعال، وأنه لا خوف من اشتعال الهليوم وإن كان أثقل شيئاً من الهيدروجين ـ وما أشبه ذلك.

والحقيقة أن هذه الأمور إنما هي فروع لا أصول، وأنها نتائج لا مقدمات، وإن "التضحية" أو الجهاد بالمثل وبالنفس هو العلم الأعلى. فإذا تعلمت الأمة هذا العلم وعملت به دانت لها سائر العلوم، ودنت منها جميع القطوف.

وليس بضروري أن يكون صاحب الحاجة عالماً بعملها حتى يكون عالماً بالاحتياج إليها. قال لي مرة حكيم الشرق السيد جمال الدين الأفغاني.

"إن الوالد الشفيق يكون من أجهل الجهلاء، فإذا مرض ابنه اختار له أحذق الأطباء، وعلم أن هناك شيئاً نافعاً هو العلم لا يعلم هو شيئاً منه، ولكنه يعلم بسائق حرصه على حياة ابنه أنه ضروري".

ولم يكن محمد علي عالماً وربما كان أمياً، ولكنه بعث مصر من العدم إلى الوجود في زمن قصير، وصيرها في زمانه من الدول العظام بسائق هذا العلم الأعلى الذي هو الإرادة، والذي هو يبعث صاحبه إلى التفتيش عن العلوم وحمل الأمة عليها.

فالمسلمون يمكنهم إذا أرادوا وجردوا العزائم وعملوا بما حرضهم عليه كتابهم أن يبلغوا مبالغ الأوربيين والأمريكيين واليابانيين من العلم والارتقاء، وأن يبقوا على إسلامهم كما بقي أولئك على أديانهم، بل هم أولى بذلك وأحرى. فإن أولئك رجال ونحن رجال، وإنما الذي ينقصنا الأعمال، وإنما الذي يضرنا هو التشاؤم والاستخذاء وانقطاع الآمال. فلننفض غبار اليأس ولنقدم إلى الأمام، ولنعلم أننا بالغوا كل أمنية بالعمل والدأب والأقدام، وتحقيق شروط الإيمان التي في القرآن ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وأن الله لمع المحسنين﴾.

لوزان 11 نوفمبر سنة 1930 شكيب أرسلان

تم الجواب

شكيب أرسلان
1946.1869

يعتبر شكيب أرسلان من أهم شخصيات النهضة العربية. مارس الصحافة والكتابة، وكان مهتماً بشؤون المسلمين والعرب وسبل نهوضهم. كان في البداية من أنصار "الجامعة الإسلامية" التي ترى وجوب الحفاظ على وحدة السلطنة العثمانية، أمام تحديات التغلغل الأوربي، ثم انضوى في مسيرة النهوض العربي العام.

ولد في الشويفات (لبنان)، وتلقى العلم في بيروت، وكتب الشعر في مطلع شبابه، ثم مال إلى السياسية، فمارس العمل الإداري والسياسي، ثم العمل الثقافي العام، كما أصدر في سويسرا مجلة شهرية بالفرنسية (الأمة العربية).

من أعماله :

1 ـ باكورة نظم الأمير شكيب أرسلان. بيروت .1887

2 ـ إلى العرب: بيان إلى الأمة العربية عن حزب اللامركزية ـ الأستانة 1914 ـ يناصر فيه وجهة النظر العثمانية.

3 ـ لماذا تأخر المسلمون، ولماذا تقدم غيرهم ـ القاهرة 1930. **وهو الكتاب الذي نعيد نشره.**

4 ـ الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف.

5 ـ تاريخ غزوات العرب في فرنسا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط 1933 القاهرة.

6 ـ ديوان الأمير شكيب أرسلان ـ القاهرة .1935

7 ـ الحلل السندسية في الآثار والأخبار الأندلسية ـ القاهرة 1939.

8 ـ شوقي أو صداقة أربعين سنة ـ القاهرة .1936

9 ـ السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة ـ دمشق .1937

10 ـ الوحدة العربية ـ دمشق .1937

11 ـ النهضة العربية في العصر الحديث ـ دمشق .1937

12 ـ سيرة ذاتية ـ بيروت 1969.

ـ إضافة إلى تحقيقات وتعليقات وترجمات ومقالات مختلفة.

الفهرس

تأخُّر العرب والمسلمين (قراءة في كتاب شكيب أرسلان).....5
تقديم أ.د. حسين جمعة.....5
مقدمة الرسالة لصاحب النار 23
كتاب المقترح لهذه الرسالة 27
جواب الأمير شكيب أرسلان.....31
أسباب ارتقاء المسلمين الماضي 34
فقد المسلمين السبب الذي ساد به سلفهم.....37
المقابلة بين حالي المسلمين والإفرنج اليوم.....40
اعتذار المسلمين عن أنفسهم ورده 45
خيانة بعض المسلمين لدينهم ووطنهم واعتذارهم الباطل.....57
أهم أسباب تأخر المسلمين.....74
شبهات الجهلاء الجبناء وردها.....79
ضياع الإسلام بين الجامدين والجاحدين.....88
محافظة الشعوب الإفرنجية على قومياتها 90
العبرة للعرب وسائر المسلمين برقى اليابانيين 95
لماذا لا نسمي اليابان وأوربة رجعية بتدينهما 100
غوائل الجامدين في الإسلام والمسلمين.....104
آيات العمل المبطلة لتفسير القدر بالجبر والكسل 107
كون المسلمين الجامدين فتنة لأعداء الإسلام وحجة عليه.....113
مدنية الإسلام.....118

الرد على حساد المدنية الإسلامية المكابرين 123
اليونان والرومان قبل النصرانية وبعدها..... 127
سبب تأخر أوربة الماضي ونهضتها الحاضرة 133
حث القرآن على العلم باعث للمسلمين على سبق الأمم في الرقي..... 138
كلمة لطلاب النهضة القومية دون الدينية 143
خلاصة الجواب 146
شكيب أرسلان 1869 – 1946 150

إصدارات سلسلة

كتاب الجيب السابقة

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
1	المقاومة مختارات قصصية	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2006
2	المقاومة مختارات شعرية	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2006
3	القصة القصيرة في سورية الراحلون	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2006
4	علامة الشام أحمد راتب النفاخ	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2007
5	رفقة السلاح ... والقمر	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2007
6	صوت في الظلام قصص ايطالية	د. حسن حميد	د. حسن حميد	2007
7	الخرز الملون خمسة أيام في حياة نسرين حوري - رواية وثائقية	د. حسن حميد	د. حسن حميد	2007
8	الأديب - النص - الناقد / د. طه حسين ميخائيل نعيمة - فؤاد الشايب - د. محمود أمين العالم - بدر شاكر السياب	د. خالد البرادعي	د. حسن حميد	2007
9	ظاهرة (الأدب الصهيوني) / إطلالة على :(المصطلح النشأة الموضوعات)	محمد توفيق الصواف	محمد توفيق الصواف	2007
10	أبو خليل القباني رائد المسرح العربي	د. حسين جمعة	عبد القادر الحصني	2007

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
11	نازك الملائكة	د. حسين جمعة	عبـــد القـــادر الحصني	2007
12	الشاعر محمد الحريري مختارات	د. حسين جمعة	عبـــد القـــادر الحصني	2007
13	عبد الله عبد مختارات قصصية	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2007
14	الإصلاحيون أحمد أمين	د. حسين جمعة	د. خالـد محـي الدين البرادعي	2007
15	مختارات من أدب الأطفال	د. حسين جمعة	عبـــد القـــادر الحصني	2008
16	ياليل ونصوص أخرى	د. حسين جمعة	عبـــد القـــادر الحصني	2008
17	وداعاً يا دمشق	د. حسين جمعة	عبـــد القـــادر الحصني	2008
18	ماري عجمي في مختارات من الشـعر والنثر إصدار الرابطة الثقافية النسائية في دمشق 1944م	د. حسين جمعة	عيسى فتوح	2008
19	إنصاف المرأة	د. حسين جمعة	عيسى فتوح	2008
20	أحب الشام -ناديا خوست	د. حسين جمعة	عبـــد القـــادر الحصني	2008
21	التراب الحزين بديع حقي	د. حسين جمعة	فادية غيبور	2008
22	القصـــيدة الدمشـــقية وقصـــائد أخرى- نزار قباني	د. حسين جمعة	فادية غيبور	2008
23	مختارات من نوح العندليب شفيق جبري	د. حسين جمعة	فادية غيبور	2008
24	مختارات من أعمال الأديبة غـادة السمان	د. حسين جمعة	فادية غيبور	2008
25	مختارات قصصية للأديبـة فمـر كيلاني	د. حسين جمعة	فادية غيبور	2008
26	مقالات دمشق - مكـان وسـكان وألوان	د. حسين جمعة	فادية غيبور	2009

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
27	سميح القاسم - الصورة الأخيرة في الألبوم	د. حسن حميد	د. حسن حميد	2009
28	مقهى الباشورة -خليل السواحري	د. حسن حميد	د. حسن حميد	2009
29	جبـرا ابـراهيم جبـرا- عـرق وقصص أخرى	د. حسن حميد	د. حسن حميد	2009
30	محمـود درويـش - مختـارات شعرية من دواوينه والانترنت	د. حسين جمعة	فاديا غبور	2009
31	عائد إلى حيفا وأعمـال أخـرى- غسان كنفاني	د. حسين جمعة	فاديا غبور	2009
32	عذبة رواية- صبحي فحماوي	د. حسين جمعة	فاديا غبور	2009
33	حكاية الولد الفلسطيني 1971- أحمد دحبور	د. حسن حميد	د. حسن حميد	2009
34	أسـئلة الثقافـة فـي القـدس والمقاومة- مقالات- المتوكل طه	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2009
35	مختارات من شعر علي الجندي	د. حسين جمعة	محمد حمدان	2010
36	الجولان فـي القصـة السـورية (حضور المكان)-علي المزعل	د. حسين جمعة	فاديا غبور	2010
37	(الامريكي) أحمد رفيق عوض	د. حسن حميد	فاديا غبور	2010
38	ملكوت البسطاء- رواية -خيري الذهبي	د. حسن حميد	فاديا غبور	2010
39	مختارات قصصية رفصـة ليلـة الوداع - رشاد أبو شاور	د. حسن حميد	فاديا غبور	2010
40	شفيق الكمـالي ـــ مختـارات شعرية زبير سلطان قدوري	زبيـر سـلطان قدوري	فاديا غبور	2010
41	الأعلام الشعري في التراث العربي - أحمد سويلم	د. حسين جمعة	فاديا غبور	2010
42	الظل الثالـث وقصـص أخـرى مختارات قصصـية - د. خليفـة صالح أحواس	د. حسين جمعة	فاديا غبور	2010

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
43	بريجيت مأساة تمثيلية ذات خمسة فصول-يوسف نعمة الله جد	د. حسين جمعة	فاديا غيبور	2010
44	انطوان تشيخوف دراسات ونصوص د. شاكر خصباك	د. ابراهيم الجرادي -عبد العزيز المفالح	د. ابراهيم الجرادي -عبد العزيز المفالح	2010
45	عبد الله البردوني قصائد مختارة ودراسات	د. حسين جمعة	د. ابراهيم الجرادي	2011
46	القصيدة تبحث عن نفسها (شعراء التسعينيات والأنماط الشعرية السائدة)	د. ابراهيم الجرادي	د. ابراهيم الجرادي	2011
47	مختارات من أدب الخيال العلمي العربي - رقم 004 يأمركم	د. طالب عمران	د. طالب عمران	2011
48	الله والغريب مختارات شعرية سلامة عبيد	فؤاد الكحل	د. ثائرزين الدين	2011
49	ماياكوفسكي غيمة في سروال	مالك صقور	د. ابراهيم الجرادي	2011
50	سليمان العيسى- اليأس : أمل يستنسخ أوصافه	د. ابراهيم الجرادي	د. ابراهيم الجرادي	2011
51	محمد الفراتي مأخوذا بالوردة والسيف مختارات شعرية	د. حسين جمعة	شاهر امرير	2011
52	نزيه أبو عفش حارس الآلام	د. ابراهيم الجرادي	د. ابراهيم الجرادي	2011
53	الشاعر العربي الحديث مسرحياً	د. علي جعفر العلاق	د. ابراهيم الجرادي	2011
54	حكم النبي محمد ليف تولستوي	مالك صقور	مالك صقور	2011
55	جان جاك روسو المصلح الاجتماعي - محمد عطية الأبرشي	مالك صقور	مالك صقور	2012
56	بدر شاكر السياب- منزل الأقنان	مالك صقور	مالك صقور	2012
57	حي بن يقظان لابن طفيل الأندلسي	د. جميل صليبا- د. كامل عياد	مالك صقور	2012

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
58	بدوي الجبـل (محمـد سـليمان الأحمــد) عــام 1968 مدحــة عكاش-	د. حسين جمعة	مالك صفور	2012
59	ابن الرومي حياته من شعره ج1 عباس محمود العقاد	مالك صفور	مالك صفور	2012
60	ابن الرومي حياته من شعره ج2 عباس محمود العقاد	مالك صفور	مالك صفور	2012
61	كان ما كان - ميخائيل نعيمة	مالك صفور	مالك صفور	2012
62	إمرأة من برج الحمل - اعتـدال رافع	ماجدة حمود	ماجدة حمود	2012
63	من النكبة إلى المقاومة والتجديد	مالك صفور	مالك صفور	2012
64	الأعاصـير - الشـاعر القـروي رشيد سليم الخوري	د. حسين جمعة	د. ثائرزين الدين	2012
65	عبـد اللطيـف عقـل دراسـات ومختارات	ياسين فاعور	ياسين فاعور	2012
66	حكيم الدهر أبو العلاء المعري	مالك صفور	مالك صفور	2012
67	الاصدار الأول للموقف الأدبي	مالك صفور	مالك صفور	2012
68	عبقريات العقاد (دراسة وتحليل)	مالك صفور	د. حسين جمعة	2013
69	الاشتراكية والأدب	مالك صفور	د. حسين جمعة	2013
70	رباعيات عمر الخيام	أ.د. حسين جمعة	مالك صفور	2013
71	طبـائع الاسـتبداد ومصـارع الاستعباد	أ.د. حسين جمعة	مالك صفور	2013
72	ليس لدى الكولونيل من يكاتبه		مالك صفور	2013

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
73	ما الشعر العظيم؟	د. نزار بريك هنيدي	د. حسين جمعة	2013
74	الشعر بين الفنون الجميلة	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2013
75	الفقه والتصوف والمسائل الشرعية في الخلافة	أ. محمد راتب الحلاق	مالك صقور	2013
76	صالح العلي ثائراً وشاعراً	أ. د. حسين جمعة	مالك صقور	2013
77	أبو القاسم الشابي شاعر الشباب والحرية	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2013
78	أنا من سلالة الصخور	د. نزار بني المرجة	مالك صقور	2013
79	الأديب والمفكر أبو حيان التوحيدي	د. نزار بني المرجة	مالك صقور	2013
80	الأدب للشعب	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2014
81	مديح الظل العالي	أ. د. حسين جمعة	مالك صقور	2014
82	معارك فكرية	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2014
83	واقعية بلا ضفاف	مالك صقور	أ.د. حسين جمعة	2014
84	كيف تعلمت الكتابة	مالك صقور	أ.د. حسين جمعة	2014
85	السيف والترس	مالك صقور	أ.د. حسين جمعة	2014
86	بعث الأمة العربية ورسالتها إلى العالم	مالك صقور	أ.د. حسين جمعة	2014
87	الغربال	مالك صقور	أ.د. حسين جمعة	2014
88	الله	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2014
89	عصا الحكيم	مالك صقور	أ.د. حسين جمعة	2014

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
90	الفارابي	أ.د. حسين جمعة	مالك صفور	2014
91	الأدب الثوري عبر التاريخ	أ.د. حسين جمعة	مالك صفور	2014
92	المسألة اليهودية	أ.د. حسين جمعة	مالك صفور	2015
93	مذكرات مستر همفر	مالك صفور	أ.د. حسين جمعة	2015
94	صوت أبي العلاء	مالك صفور	أ.د. حسين جمعة	2015
95	فن الأدب (جزء 1)	مالك صفور	رضوان فضملي	2015
96	فن الأدب (جزء 2)	مالك صفور	رضوان فضملي	2015
97	الإسلام بين العلم والمدنية	أ.د. حسين جمعة	مالك صفور	2015
98	حكيم الدهر أبي العلاء المعري	مالك صفور	مالك صفور	2015
99	شظايا من عمري	شاهر أحمد ناصر	مالك صفور	2015